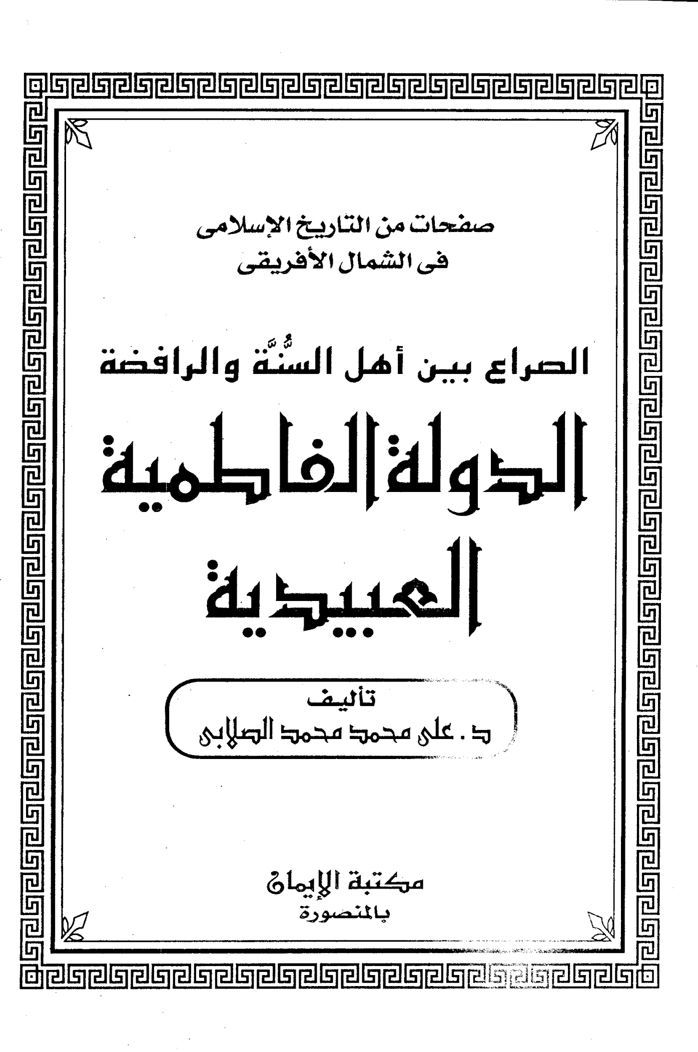


صفحات من التاريخ الإسلامى
فى الشمال الأفريقى

الصراع بين أهل السُّنَّة والرافضة

الدولة الفاطمية العبيدية

تأليف
د . على محمد محمد الصلابى

مكتبة الإيمان
بالمنصورة

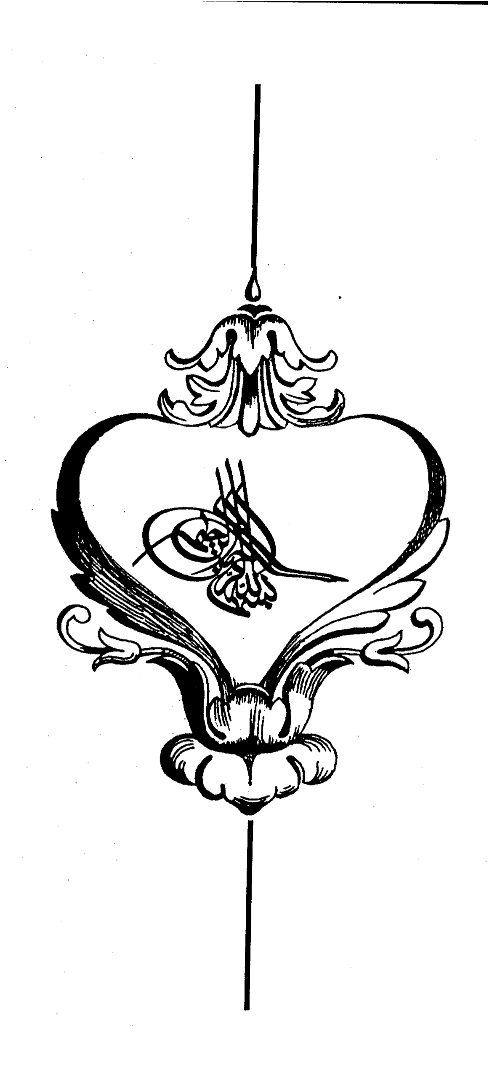


الطبعة الأولى

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٢١٦٩٤



إخراج فنى وكمبيوتر
بانوراما قنديل للفنون ☎ ٠٤٠/٢٢٤١٣٢٩



الإهداء

إلى أبناء الشمال الإفريقي خصوصاً، وأبناء الأمة عموماً أهدى هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

المؤلف

علي محمد محمد الصلابي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له،ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩، ٧٠، ٧١] .

أما بعـــد :

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك، وعظيم سلطانه، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت .

هذا الكتاب الثالث« صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى »يتحدث عن الدولة العبيدية « الفاطمية » الرافضية منذ نشأتها وحتى سقوطها، ويتعرض للبحث فى فرق الشيعة وخطرها على الأمة الإسلامية المجيدة، ويحاول أن يسلط الأضواء على أسباب نجاح الدولة الباطنية فى الشمال الإفريقى،

ويبين حقيقة الصراع بين الرافضة وأهل السنة، ويذكر أساليب الرافضة المتنوعة في محاربة أهالي السنة، وموقف أهل السنة من ذلك، ويتطرق إلى المجهودات العظيمة التي قام بها أهلي الشمال الإفريقي للقضاء على الدولة العبيدية ودور العلماء من أهل السنة في التعليم والتربية وحمل السلاح ضد الروافض.

ويسلط الأضواء على تأثير الدولة الصنهاجية في نشر معتقدات أهل السنة وإزالة جذور الروافض من الشمال الإفريقي كله، وخصوصاً في زمن المعز بن باديس الصنهاجي وابنه تميم بن المعز، ويسرد الأحداث التي وقعت بين الدولة العبيدية في مصر والدولة الصنهاجية، ويشرح الأسباب التي كانت سبباً في سقوط الدولة الصنهاجية، وينتقل بالقارئ إلى الصراع بين الروافض في مصر وأهل السنة في العراق ليؤكد على معنى مهم، وهو أن تاريخ الشمال الإفريقي جزء من تاريخ الأمة يتأثر بالأحداث التي تقع في مصر والحجاز والشام والعراق وفي غيرها سلباً وإيجاباً، وأننا لا نستطيع أن نفصل تاريخ الأمة بعضه عن بعض، ويركز على فقه التمكين عند القائدين العظيمين نور الدين محمود، وصلاح الدين من خلال سيرتهم الجهادية المباركة، وعن جهود العلماء والمحدثين والمربين الذين ساهموا في ظهور جيل النصر والتمكين، ويحاول أن يفسر سنن الله في المجتمعات والدول والشعوب من خلال التفسير التاريخي للأحداث، ويشير إلى معرفة سنن الله، وكيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية وأهمية العلماء في قيادة الأمة نحو المجد والعزة والكرامة والحرص على الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية التي تحقق بها النصر على الأعداء ويتحدث عن أهمية سنة التدرج في تغيير الشعوب، وبناء الدول، ويعطي للتربية الربانية أهمية قصوى في تحقيق الأهداف العظمى للأمة سواء على مستوى القادة في أخلاقهم وعلمهم، وجهادهم أو مستوى الشعوب في استجابتها لكتاب ربها وسنة نبيها وقيادتها المخلصة.

وهذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد، وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية في هذه الحقبة الزمنية التي وقعت في

الشمال الإفريقى، والتى تأثرت بالمشرق الإسلامى فى حركتها التاريخية، فإن كان خيراً فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لى ذلك، والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه.

وهدفى من هذا الكتاب:

١-التأكيد على أن أصول المد الإسلامى فى بلادنا أصول سنية لا شيعية ولا خارجية، وإنما ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه.

٢-تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر فى سنن الله فى الآفاق وفى الأنفس والمجتمعات.

٣-الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السنة والجماعة، وتربية أبناء الأمة عليها وكشف معتقدات الروافض التى تخالف القرآن الكريم، وسنة سيد المرسلين ﷺ وإجماع العلماء الراسخين.

٤-التعريف ببعض القادة الربانيين فى المغرب، كالمعز بن باديس، وتميم بن المعز، وفى المشرق كنور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبى، حتى تستفيد من سيرتهم العطرة أجيال المسلمين التى تنشد النصر والتمكين لدين الله تعالى.

٥-إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيداً عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

أما خطة الكتاب فقد قمت بتقسيمه إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: الدولة الشيعية فى الشمال الإفريقى ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: الشيعة فى اللغة.

أولاً: تعريف الشيعة لغة واصطلاحاً.

ثانياً: تعريف الرافضة.

ثالثاً: سبب تسميتهم بهذا الاسم.

رابعاً: بداية التشيع.

- وفاة نور الدين.
- المبحث الثالث: صلاح الدين الأيوبى.
أ - القاضى الفاصل.
- وفاته.
ب - وفاة السلطان الناصر صلاح الدين.
ج - الملامح الرئيسية فى شخصية صلاح الدين.
د - من أروع المراثى فى صلاح الدين.
هـ - من أروع الرسائل فى أخبار وفاة صلاح الدين.
ثم نتائج البحث.

وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبنى على كل حرف كتبته ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين أعانونى بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف
علي محمد محمد الصلابي



الفصل الأول

الدولة الشيعية
فى
الشمال الإفريقى

الفصل الأول
الدولة الشيعية فى الشمال الإفريقى

المبحث الأول
الشيعة فى اللغة

قال الجوهرى رحمه الله: « شيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، يقال: شيعه كما يقال: والاه من الولى.. وتشيع الرجل أى: ادعى دعوى الشيعة، وتشايع القوم صاروا شيعاً، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع، وقوله تعالى: ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ [سبأ: ٥٤] أى بأمثالهم من الأمم الماضية (١).

وجاء فى المصباح المنير: « والشيعة: الأتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، ثم صارت الشيعة نبزاً - أى وصفاً - لجماعة مخصوصة والجمع شيع مثل سدرة وسدر، والأشياع جمع الجمع وشيعت رمضان بست من شوال أتبعته بها » (٢).

فالشيعة: من حيث مدلولها اللغوى تعنى: القوم والصحب والأتباع والأعوان، وقد ورد هذا المعنى فى بعض آيات القرآن الكريم كما فى قوله تعالى:

﴿ **فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ [القصص: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الصافات: ٨٣].

فلفظ الشيعة فى الآية الأولى تعنى القوم، وفى الثانية: تشير إلى الأتباع الذين يوافقون على الرأى والنهج ويشاركون فيهما (٣).

---

(١) الصحاح للجواهرى، ولسان العرب: « شيع ».

(٢) المصباح المنير: « شيع ».

(٣) المصباح المنير: ج ١ - ٣٢٩.

تعريف الشيعة اصطلاحاً:

كلمة «شيعة» اتخذت معنى اصطلاحياً مستقلاً حيث أطلقت على جماعةاعتقدو أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى ترجع إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل إنها ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبى إغفالها ولا تفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه أن يعين الإمام للأمة (١).

فقد قال أبو الحسن الأشعرى فى صدد ذكره للشيعة: «وإنما قيل لهم الشيعة: لأنهم شايعوا عليا - رضوان الله عليه - ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله ﷺ» (٢).

وقال عبد الرحمن بن خلدون: «اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق فى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف و السلف على أتباع على وبنيه رضى الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر وإن عليا رضي الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة» (٣).

ثانياً: **تعريف الرافضة:**

الرفض لغة: الترك وقد رفضه يرفضه رفضاً.

قال الأصمعى: «سموا بذلك لتركهم زيد بن على رضي الله عنه» (٤).

فالرفض فى اللغة معناه الترك والتخلى عن الشىء.

وأما فى **الاصطلاح**: هم قوم من الشيعة سموا بذلك؛ لأنهم تركوا زيد بن على.

قال الأصمعى: «كانوا بايعوه ثم قالوا له: ابرأ من الشيخين نقاتل معك،

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص (١٩٦، ١٩٧).

(٢) مقالات الإسلاميين (ج١/ ٦٥).

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص(١٩٦، ١٩٧).

(٤) الصحاح للجوهرى، (ج٢/ ١٠٧٨)، ولسان العرب (ج٧/ ١٥٧): «رفض».

فأبى، وقال: كانا وزيرى جدى فلا أبرأ منهما، فرفضوه، وارفضوه عنه فسموا رافضة»(١).

قال عبد الله بن أحمد رحمه الله: قلت لأبى: «من الرافضى؟ قال: الذى يشتم ويسب أبا بكر وعمر»(٢).

ثالثاً: سبب تسميتهم بهذا الاسم:

عندما خرج زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم على هشام بن عبد الملك كان فى جيشه من يشتم أبا بكر وعمر فمنعهم، فرفضوه، ولم يبق معه إلا مئتا فارس، فقال لهم - أى زيد بن على: رفضتمونى، قالو: نعم، فبقى عليهم هذا الاسم(٣)، وكان ذلك فى سنة ثنتين وعشرين ومائة. يقول ابن كثير - رحمه الله - فى صدد بيانه ما حدث فى هذه السنة: «فيها كان مقتل زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة أمرهم فى أول هذه السنة بالخروج والتأهب له، فشرعوا فى أخذ الأهبة لذلك، فانطلق رجل يقال له سليمان بن سراقة إلى يوسف بن عمر نائب العراق فأخبره - وهو بالحيرة يومئذ - خبر زيد بن على هذا وكان معه من أهل الكوفة فبعث يوسف بن عمر يتطلبه ويلح فى طلبه، فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا زيد بن على فقالوا له: ما قولك - يرحمك الله - فى أبى بكر وعمر؟ فقال: غفر الله لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتى تبرأ منهما، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً، قالوا: فلم تطلب إذاً بدم أهل البيت؟ فقال: إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر، ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، وقد ولو فعدلوا وعملو بالكتاب والسنة، قالوا: فلم تقاتل هؤلاء إذاً؟ قال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا

---

(١) لسان العرب (ج٧/١٥٧).

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى، ص(١٦٥).

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص(٥٢).

أنفسهم، وإنى أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإحياء السنن وإماتة البدع، فإن تسمعوا يكن خيراً لكم ولى، وإن تأبوا فلست عليك بوكيل، فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه، فلهذا سموا الرافضة من يومئذ »(١).

وبهذا يتبين سبب تسميتهم بالرافضة، لرفضهم زيد بن على الذى منعهم من سب الشيخين رضى الله عنهما، وأصبحت كلمة الرافضة تطلق على كل من غلى فى مذهب الشيعة وأجاز الطعن فى الصحابة.

رابعاً: بداية نشأة التشيع:

تذكر كتب التاريخ أن أول من زرع فكرة التشيع فى الأمة رجل يهودى يقال له: عبد الله بن سبأ أظهر الإسلام للطعن فيه، وكان ذلك زمن الخليفة الراشد ذى النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتنقل ابن سبأ بين المدينة والبصرة والكوفة ومصر والشام، والتف حوله المفسدون والحاقدون من المنافقين والجهال بحقيقة الدين.

ونشط ابن سبأ المعروف بابن السوداء فى بث فكرتين أساسيتين لأهدافه اليهودية هما:

الأولى: دعوته إلى اعتقاد رجعة النبى ﷺ وكان يقول: « عجباً ممن يزعم أن عيسى سيرجع ويكذب بأن محمداً سيرجع، وقد قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾[القصص: ٨٥].

الثانية: دعوته إلى اعتقاد « أن لكل نبى وصياً وعلى وصى لمحمد، ومحمد خاتم الأنبياء، وعلى خاتم الأوصياء، ومن أظلم ممن يمنع وصية رسول الله ﷺ ووثب على حق وصيته وتناول أمر الأمة ».

وأرسل ابن سبأ أصحابه وأتباعه فى الأمصار ليكتبوا ظلماً وزوراً وبهتاناً للطعن فى الولاة، وينسبوا ذلك لخليفة المسلمين وحثهم على الظهور بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى يلتف حولهم العوام، وزوروا رسائل نسبوها إلى عثمان رضي الله عنه للدس والوقيعة بين الأمة وخليفتها وولاتها.

---

(١) البداية (ج٩ / ٣٧٠ ، ٣٧١).

وهيج الأمصار واستجاب أهل البصرة والكوفة ومصر لأهدافة القريبة، وكان من نتائج دسائسه قتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه بغير حق ظلماً وعدواناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مبيناً أن ابن سبأ أول من أحدث الرفض والغلو المذموم، قال: «وأصل الرفض من المنافقين والزنادقة فإنه ابتدعه ابن سبأ الزنديق وأظهر الغلو فى على بدعوى الإمامة والنص عليه وادعى العصمة له»(1).

وذكر أيضاً: «أن ابن سبأ المنافق الزنديق أراد فساد دين الإسلام، وأراد أن يصنع بالمسلمين ما صنع بولس بالنصارى لكن لم يتأت له ما تأتى لبولس لضعف النصارى وعقلهم، فإن المسيح عليه السلام رفع ولم يتبعه خلق كثير يعلمون دينة، ويقومون به علماً وعملاً، فلما ابتدع بولس ما ابتدع من الغلو فى المسيح اتبعه على ذلك طوائف وأحبوا الغلو فى المسيح، فقام أهل الحق فخالفوهم وأنكروا عليهم فقتلت الملوك بعضهم،وبعضهم اعتزلوا فى الصوامع والأدرية، وهذه الأمة ولله الحمد لا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق، فلا يتمكن ملحد ولا مبتدع من إفساده بغلو أو انتصار على الحق، ولكن يضل من يتبعه على ضلاله»(2).

ولوضوح خبثه وكيده وشدة حقده على الإسلام والمسلمين لم يذكره أحد من أهل الإيمان بخير، وإنما وصفوه بأنه أول من سن لأهل الخذلان النيل من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ووصفوه بالخبث والكذب والنفاق والزندقة وبانه ضال مضل.

ذكر ابن حجر من طريق أبى إسحاق الفزارى أن سويد بن غفلة دخل على على فى إمارته، فقال: إنى مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر ويرون أنك تضمر لهما مثل ذلك، فقال على: ما لى ولهذا الخبيث الأسود، ثم قال: معاذ الله أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل، ثم أرسل إلى عبد الله بن سبأ فسيره إلى المدائن، وقال: لا يساكننى فى بلدة أبداً، ثم نهض إلى المنبر حتى اجتمع الناس، ثم أثنى

---

(1) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (ج4 / 435).

(2) منهاج السنة (ج3 / 261).

على الشيخين ثناء طويلاً، وقال في آخره: «ألا ولا يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلا جلدته حد المفتري»(١).

وتذكر بعض الروايات أن عليا رضي الله عنه هم بقتله ودعا بالسيف، فكلم فيه، فقال: لا يساكنني ببلد أنا فيه، فسيره إلى المدائن(٢).

وذكر ابن عساكر بإسناده إلى أبي الجلاسي قال: سمعت عليا يقول لعبد الله السبئي: «ويلك والله ما أفضى إلي بشيء كتمه أحد من الناس وقد سمعته يقول: إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً وإنك لأحدهم»(٣).

فعلي رضي الله عنه حكم على ابن سبأ بأنه خبيث، وهم بقتله ولما تراجع عن قتله نفاه إلى المدائن، وبين بأنه أحد الدجالين.

وقال الحافظ الذهبي في شأن ابن سبأ: «عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة ضال مضل أحسب أن عليا حرقه بالنار، وزعم أن القرآن جزء من تسعة أجزاء وعلمه على فنفاه على بعد ما هم به»(٤).

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن أورد روايات في ذمه: «وأخبر عبد الله بن سبأ شهيرة في التواريخ وليست له رواية ولله الحمد وله أتباع يقال لهم السبئية يعتقدون إلهية علي بن أبي طالب، وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته»(٥).

قلت: والحرق بالنار منهي عنه شرعاً، كان يكفي قتلهم بالسيف.

وبذلك يتضح للقارئ الكريم أن ابن سبأ اليهودي هو أول من زرع فكرة التشيع وقال بالرجعة والوصية وتلقفها عنه أتباعه وبعض من قلت بضاعتهم من

---

(١) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص (١٠٠، ١٠١).

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (ج٣٤/٧).

(٣) المصدر السابق (ج٣٤/٦).

(٤) ميزان الاعتدال (٢/٤٢٦).

(٥) لسان الميزان (٣/١٢٢، ١٢٣).

العلم والهدى[١].

والدارس للتاريخ يتضح له أن الأمة فى هزاتها العنيفة يكون سببها رجال حاقدون على الإسلام، ويتقنون دور التخفى بين أوساط المسلمين ولا يكون ولا يملون من بذر ونشر أفكارهم الشيطانية المناهضة للعقيدة الإسلامية المنبثقة من كتاب الله وسنة النبى ﷺ.

---

(١) ابن سبأ حقيقة لا خيال (سعدى الهاشمى).

المبحث الثانى
التعريف بأهم فرق الشيعة

إن علماء الفرق صنفوا كتباً كثيرة فى فرق الشيعة ورأيت فى بحثى أن أذكر أسماء ولا أتعرض بالتفصيل منها إلا للباطنية لكونها حكمت الشمال الإفريقى،والاثنى عشرية ، لكونها لها دولة حالياً تقوم بنشر ودعم المذهب الشيعى ، وللنصيرية لكونها تحكم سوريا منذ بداية السبعينيات حتى الآن ومن فرق الشيعة التى ذكرها علماء الفرق :

السبئية، والغرابية، والبياتية، والمغيرية، والهاشمية، والخطابية، والعلبائية، والكيسانية، والزيدية الجارودية، والسليمانية، والصالحية، والبترية، وبعض هذه الفرق غالت غلواً عظيماً والبعض الآخر أقل غلواً ، ومن أراد الاستزادة فليراجع مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعرى، والملل والنحل للشهرستانى، والفرق بين الفرق، لأبى الطاهرى البغدادى.

أولاً النصيرية :

وتعتبر هذه الفرق من غلاة الشيعة وينتسبون إلى محمد بن نصير المنيرى وقد انبثقت هذه الفرقة من الإثنى عشرية « الرافضة » وغالوا فى على بن أبى طالب رضي الله عنه حتى ألَّهوه .

واشتهرت هذه الفرقة بحرب الإسلام والمسلمين وبمناصرة النصارى الحاقدين والوقوف مع التتار المفسدين ، كما اشتهرت بالإلحاد فى أسماء الله وآياته وتحريف كلام الله وكلام رسوله ﷺ عن مواضعه ، وإليك ما قال شيخ الإسلام عن النصيرية فى إجابته فى سؤال عنهم :« الحمد لله رب العالمين ، هؤلاء القوم المتسمون بالنصرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والإفرنج وغيرهم،فإن هؤلاء يتظاهرون عند جُهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله

ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهى، ولا ثواب ولا عقاب، ولاجنة ولا نار، ولا باحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين، يتأولونه على أمور يفترونها يدعون أنها علم الباطن وليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد فى أسماء الله تعالى وآياته وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه» إلى أن قال :« ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين ،فهم مع النصارى على المسلمين ، ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار ، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى – والعياذ بالله تعالى – النصارى على ثغور المسلمين . . . فهؤلاء المعادون لله ورسوله كثروا حينئذ على السواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل ، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم السيئة كانت من أعظم الأسباب فى ذلك ، ثم لما أقام الله أمور المسلمين المجاهدين فى سبيل الله تعالى كـ: نور الدين الشهيد، وصلاح الدين وأتباعهما وفتحوا السواحل من النصارى ، وممن كان بها منهم وفتحوا أيضاً أرض مصر ، فإنهم كانوا مستولين عليها نحو مائتى سنة ، واتفقوا هم والنصارى ، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد . . .ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم . .ولهم ألقاب معروفة عن المسلمين تارة يسمون « الملاحدة » وتارة يسمون « القرامطة » وتارة يسمون« الباطنية » وتارة يسمون « الإسماعيلية » وتارة يسمون« الخرمية »وتارة يسمون « المحمرة » .

وهذه الأسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض أصنافهم ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات وهو أفضل من جهاد لا يقاتل المسلمين المشركين وأهل الكتاب فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين ، والصديق وسائر الصحابة رضى الله عنهم بدؤوا بجهاد المرتدين قبل الكفار من أهل الكتاب . فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك . . ويجب على كل مسلم أن يقوم بذلك على حسب ما يقدر عليه من

الواجب فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه عن أخبارهم ، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ولا يحل لأحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله ورسوله . . .والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى »(١) .

وهذه الفرقة الخبيثة سمت نفسها في العصر الحاضر بالعلويين وفي فترة الاحتلال الفرنسي لبلاد الشام وقفت هذه الفرقة مع النصارى الغزاة الحاقدين ، وما أخرج الاستعمار الفرنسي حتى مكنهم من سوريا وعندما تقلدوا أمور البلاد انتقموا من أهل السنة انتقاماً تشيب منه الولدان وتضع كل ذات حمل حملها من شدة التعذيب وزهق النفوس ، واغتصاب العفائف الحرائر من نساء أهل السنة، والزج بهن وبالرجال في السجون ، ولا يزال هؤلاء الحاقدون يتقلدون أمر عاصمة بلاد الشام ، نسأل الله أن يعجل بأخذهم ويمكن لأهل دينه وشريعته .

وهم ينتشرون في جبال اللاذقية ، وحماة وحمص في سوريا وفي لواء الإسكندرونة وطرطوس وأدنة ، أو أظنه «في تركية حالياً» وفي كردستان وغيرها (٢) .

ومن عقائدهم الفاسدة :

١- تألية الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويعتقدون أنه يسكن السحاب ، والرعد صوته، والبرق ضحكه ،وهم لهذا يعظمون السحاب ، ومنهم من يعتقد أن عليًا يسكن في القمر أو الشمس .

٢- تناسخ الأرواح : عقيدة من عقائدهم ، فالذين لا يعبدون عليًّا يولدون -في زعمهم- من جديد على شكل إبل أو حمير ، أما المؤمن « وهو من يعبد عليًّا عندهم » فيتحول عندهم سبع مرات ، ثم يأخذ مكانه بين النجوم ، ومن ينحرف منهم يولد من جديد ؛ حتى يتطهر ويكفر عن سيئاته (٣) .

---

(١) مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ، (ج ٣٥/١٤٩- ١٥٩) .

(٢) انظر : الموجز في الأديان والمذاهب ، لناصر العقل والفقاري ،ص (١٣٧) .

(٣) المصدر السابق ، ص (١٣٨) .

وغير ذلك من العقائد الفاسدة .

ولهم أعياد يحتفلون بها يقدمون فبها النبيذ ويرتكبون الفواحش وهي :عيد الغطاس ، والبربارا ، وهم عيدان نصرانيان وعيد« النيروز » وهو مجوسي[١] .

ويعتبرون هذه الديانة الفاسدة سرا من الأسرار ، ونساؤهم لا دين لهم مطلقا؛ لأنهم يعتبروهن ضعيفات العقول لا يستطعن حفظ الأسرار والرجل لا يطلع على سر دينه إلا بعد أن يبلغ التاسعة عشرة من عمره ، فيلقن العقيدة النصيرية فى جلسات خاصة ووسط مؤثرات شتى ، وإرهاب فكرى ، وطقوس عجيبة ، وتجد هذا فى كتاب « الباروكة السليمانية » لسليمان الأردنى الذى كان نصيريا ثم تنصر ، فألف هذا الكتاب ، ولا زال به أهله حتى أماتوه شر ميتة بإحراقه حياً[٢] .

والذى يجدر الانتباه له أن الدول النصرانية « أمريكا، بريطانيا، فرنسا . . . .إلخ » وإسرائيل يحرصون على طعن الأمة بهذه الخناجر المسمومة بتقويتها وفى الوقوف معها حتى تصل إلى الحكم لعلمهم من أن هذا المسلك من أفضل الوسائل فى إضعاف أمة الإسلام ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال : ٣٠][٣] .

ثانيا : الشيعة الاثنا عشرية :

ولهم أسماء كثيرة اشتهرت بين الناس منها : الإمامية؛ لأنهم يقولون بوجوب الإمامة بالنص الظاهر والتعيين الصادق .

ويقول صاحب كتاب « أعيان الشيعة » : إن هذا الاسم « لقب ينبذ به من يقدم عليًّا عليه السلام فى الخلافة وأكثر ما يستعمل للتشفى والانتقام »[٤] .

إلا أن الكلينى الشيعى فى كتابه الكافى وهو عمدة فى مذهبهم بل أعظم كتاب عندهم ينزلونه منزلة صحيح البخارى عند أهل السنة ساق ما يدل على أنهم راضون بهذا الاسم واللقب ويكذبون على الله ويختلقون الإفك .

---

(١) المصدر السابق ، ص(١٣٩) .
(٢) انظر : الموجز فى الأديان والمذاهب لناصر العقل والقفارى ، ص (١٤٠).
(٣) من أراد الزيادة عن النصيرية فليراجع تاريخ المذاهب الإسلامية لأبى زهرة العلويون ، او النصيرية للعسكرى، فتاوى ابن تيمية، ج ٣٥ .
(٤) أعيان الشيعة لمحسن الأمين، (ج١ / ٢٠).

ويقولون : إن الله خلع عليهم اسم الروافض(١) والقوم اشتهروا بالوقاحة وعدم المبالاه بالافتراء على الله وعلى خلقه.

ومن الأسماء التى اشتهروا بها اسم « الاثنى عشرية » لقولهم واعتقادهم بإمامة اثنى عشر إماماً وهم على هذا الترتيب :

١- أبو الحسن على بن أبى طالب رضي الله عنه (ت٤٠هـ) .
٢- الحسن بن على بن أبى طالب رضي الله عنه (ت٥٠هـ) .
٣- الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنه (ت٦١هـ) .
٤- على زين العابدين بن الحسين بن على (ت٩٥هـ) .
٥- محمد الباقر بن على (ت١١٤هـ) .
٦- جعفر الصادق بن محمد (ت ١٤٨هـ)
٧- موسى الكاظم بن جعفر (ت١٨٣هـ)
٨- على بن موسى الرضا (ت٢٠٣هـ) .
٩- أبو جعفر محمد بن على « الجواد » (ت٢٢٠هـ) .
١٠- أبو الحسن على بن محمد « الهادى » (ت٢٥٤هـ) .
١١- أبو محمد الحسن بن على « العسكرى » (ت٢٦٠هـ) .
١٢- ابو القاسم محمد بن حسن « المهدى » (ت٢٥٦هـ)(٢) .

هؤلاء هم الأئمة الاثنا عشر عند الشيعة الإمامية ، والشيعة الاثنى عشرية يعتقدون فى هؤلاء الأئمة اعتقادات كلها غلو وإطراء وضعوها من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان .

ومن معتقداتهم فى أئمتهم : أنهم معصومون « من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهوا ، كما يجب أن يكونوا معصومين من السهو والخطأ والنسيان ؛ لأن الأئمة حفظة الشرع

(١) فروع الكافى (ج٨/٢٨) حديث رقم (٦) من كتاب الروضة .
(٢) انظر عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ، ص(٦٢، ٦٣) .

والقوامون عليه حالهم من ذلك حال النبى » .(١)

ووصفوا أئمتهم بصفات جاوزوا فيها المنقول والمعقول ، فعلى سبيل المثال ما ذكرة الكلينى فى كتابه الكافى المسمى عندهم « أصول الكافى » حيث إنه عقد أبواباً فيها أحاديث من إفكهم وزورهم كلها تضمنت غلوهم فى أئمتهم .

وإليك بعض عناوين تلك الأبواب :

« باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه »(٢)،« باب إن الأئمة هم أركان الأرض »(٣)، « باب أن الأئمة عندهم جميع الكتب التى نزلت من عند الله عز وجل ، وأنهم يعرفونها على اختلاف أدلتها »(٤)، « باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة »(٥)« باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التى خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل »(٦)،« باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم »(٧)، « باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم شىء »(٨)، « باب أن الله لم يعلم نبيه علماً إلا أمر أن يعلمه أمير المؤمنين وأنه شريكه فى العلم »(٩)، « باب أن الأئمة لو ستر عليهم لأخبروا كل امرئ بما له وعليه »(١٠)، « باب أن الإمام يعرف الإمام الذى يكون بعده »(١١)، « باب فى أن الأئمة إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون عن البينة »(١٢)، « باب أنه ليس شىء من الحق فى أيدى الناس إلا ما خرج من عند الأئمة وأن كل شىء لم يخرج من عندهم فهو باطل »(١٣).

وهكذا أخى القارئ : نجد أن الغلو الممقوت عند علماء الاثنى عشرية فإذا

---

(١) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر، ص(٥١).
(٢) الأصول من الكافى (ج١/١٩٢).
(٣) المصدر السابق (ج١/١٩٦).
(٤) المصدر السابق (ج١/٢٢٧).
(٥) المصدر السابق (ج١/٢٨/ ٢) .
(٦) المصدر السابق (ج١/٢٥٥).
(٧) الأصول من الكافى (ج١/٢٥٨).
(٨) المصدر السابق (ج١/ ٢٦٠) .
(٩) المصدر السابق (ج١/٢٦٣).
(١٠) المصدر السابق (ج١/٢٦٤).
(١١) المصدر السابق (ج١/ ٦ /٢٧) .
(١٢) المصدر السابق (ج١/٢٩٧).
(١٣) المصدر السابق (ج١/٣٩٩).

راجعت (مرآة العقول) للمجلسي وجدته في مستنقع الغلو الآسن وقع حيث زعم أن عصمة الأئمة فوق عصمة الأنبياء، لأنهم أعلى درجة منهم [١] وأما إمامهم المعاصر ، ومرجعهم الأعلى ، وآيتهم العظمى ، وهو من يعرف بزعيم الثورة الإيرانية فيحتاج إلى شيء من البيان والإيضاح ، لالتباس الأمر على شباب أهل السنة ، بل حتى على دعاتهم وبعض علمائهم الذين انخدعوا بشعارات الشيعة البراقة لكسب أهل السنة ، غير مبالين بعهود أعطوها ، ومواثيق ألزموا بها أنفسهم بل غدروا بهم في إيران وقتلوهم وسجنوهم ، وهدموا بيوتهم ، فإذا راجعت كتاب « وجاء دور الماجوس»[٢]رأيت العجب العجاب في أعمالهم الشنيعة وأقوالهم القبيحة حيث إن الكتاب أجاد في كشفهم وفضحهم وبين عوراتهم ووسائلهم في التستر وعلاقتهم ببقية فرق الشيعة في وقوفهم سداً منيعاً ضد أهل السنة .

إن الاثنى عشرية لم يحترموا عقلا ولم يقدسوا شرعاً ولم يلتزموا نقلاً ولم يكرموا علماءهم ولا شيوخهم، بعكس أهل السنة الذين أعطوا لهؤلاء الأئمة من الحق والتكريم وإنزالهم منزلتهم التي يستحقونها ، ويعجبني في هذا المقام ما قاله الإمام الذهبي رحمه الله تعالى مبيناً عقيدة أهل السنة فيهم :« فمولانا الإمام علي » :من الخلفاء الراشدين المشهود لهم بالجنة رضي الله عنهم ، نحبه أشد الحب، ولا ندعي عصمتة، ولا عصمة أبي بكر الصديق ، وأبناءه الحسن والحسين فسبطا رسول الله ﷺ وسيدا شباب أهل الجنة ، ولو استخلفا لكانا أهلاً لذلك .

وزين العابدين : كبير القدر، من سادة العلماء العاملين يصلح للإمامه، وكذلك ابنه جعفر الباقر: سيد إمام فقيه يصلح للخلافة .

وكذلك ولده جعفر الصادق : كبير الشأن من أئمة العلم كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور .

---

(١) انظر مرآة العقول للمجلس (ج٢ / ٢٨٩) .

(٢) اسم المؤلف : عبد الله محمد الغريب .

وكان ولده موسى: كبير القدر، جيد العلم، أولى بالخلافة من هارون، وله نظراء فى الشرف والفضل.

وابنه على بن موسى الرضا: كبير الشأن له علم وبيان، ووقْعٌ فى النفوس صيره المأمون ولى عهده لجلالته، فتوفى سنة ثلاث ومائتين.

وابنه محمد الجواد: من سادة قومه، لم يبلغ رتبة آبائه فى العلم والفقه.

وكذلك ولده الملقب بالهادى: شريف جليل.

وكذلك ابنه الحسن بن على العسكرى رحمهم الله تعالى[١] وأما الإمام الثانى عشر فقال فيه: «ومحمد هذا هو الذى يزعمون أنه الخلف الحجة وأنه صاحب الزمان، وأنه صاحب السرداب بسامراء، وأنه حى لا يموت حتى يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، فوددنا ذلك - والله - وهم فى انتظاره من أربعمائة وسبعين سنة[٢] ومن أحالك على غائب لم ينصفك، فكيف بمن أحال على مستحيل؟ والإنصاف عزيز، فنعوذ بالله من الجهل والهدى»[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج١٣/ ١٢٠، ١٢١).

(٢) المراد زمان الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨هـ.

(٣) سير أعلام النبلاء (ج١٣/ ١٢٠).

استمرار الإثنى عشرية فى العصر الحاضر
الإمام الشيعى فى العصر الحاضر ودولته التى أقامها

تفاعل العالم الإسلامى مع المد الشيعى بعد وصوله إلى مقاليد الحكم فى إيران،وإزاحة الشاة المخلوع، واستطاعت وسائل الإعلام الاثنى عشرية أن تخدع كثيراً من المسلمين فى طرحهم المعاصر، وساندتها أجهزة الإعلام الغربى، وأجاد الإمام الخمينى فى تمثيل الدور الماكر فتعاطف كتاب وصحفيون ودعاة محسوبون على أهل السنة فى تمجيد الخمينى ووصفه بأنه من المجددين، بل يسير فى موكب المصلحين من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد بن على السنوسى وحسن البنا.

وبما أن تلك المقالات والكتابات أصبحت فى ذاكرة التاريخ، وتكون سبباً فى تضييع الحقائق لأجيال المسلمين رأيت من النصح للأمة وأبنائها أن أبين أن الخمينى امتداد لمدرسة الاثنى عشرية الشيعة ذات العقائد الفاسدة والمنحرفة عن هدى الله، وأن ثورته وجمهوريته الإسلامية المزعومة جىء بها لتكون خنجراً مسموماً لكل محاولة جادة لتطبيق الإسلام الصحيح، بل أتيحت للثورة الإيرانية الفرصة أمام العالم لتشويه الإسلام الصافى النقى الذى جاء به محمد بن عبد الله ﷺ.

ولكون الدولة الإيرانية امتدت فى العالم الإسلامى ناشرة للعقائدالفاسدة فى إفريقيا وآسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتى والشمال الإفريقى، وأوربا وأستراليا وأمريكا، وتأثر بها كثير من عوام المسلمين الذين لا يملكون فهماً ولا علماً ولا اطلاعاً بحقيقة أمرهم، ومرمى أهدافهم، ورأيت من المناسب أن أبين عقائد هذا القديس المزعوم «الخمينى ومن جاء بعده»، حتى نحذر الأجيال من هذه المدرسة الشيطانية التى نخرت بنيان الأمة، ولا تزال تنخر بدون كلل ولا ملل.

ومن عقائد الإمام الخمينى الفاسدة ما ذكره فى كتابه الحكومة الإسلامية: «وأن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب، ولا

نبى مرسل، وقد ورد عنهم: أن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبى مرسل»[١].

فهذا اعتراف واضح فى كونه يفضل أئمة الاثنى عشرية على الأنبياء والرسل، وهذا مذهب غلاة الروافض فى حكم كبار أئمة السنة.

يقول عبد القاهر البغدادى (ت٤٢٩هـ): «وزعمت الغلاة من الروافض أن الأئمة أفضل من الأنبياء ونعلم أن هذا باطل»[٢].

ويقول القاضى عياض(ت٥٤٤ هـ): «وكذلك نقطع بتكفير غلاة الروافض فى قولهم : إن الأئمة أفضل من الأنبياء»[٣].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية(ت٧٢٨هـ): «والرافضة تجعل الأئمة الاثنى عشرية أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وغلاتهم يقولون: إنهم أفضل من الأنبياء»[٤].

ويقول محمد بن عبد الوهاب: «ومن اعتقد فى غير الأنبياء كونه أفضل منهم أو مساوياً لهم فقد كفر، وقد نقل على ذلك الإجماع غير واحد من العلماء»[٥].

إن الخمينى مرجعه فى المعتقد والتصور الشيعى، شيوخه الذين سبقوه ووضعوا هذا المنهج المنحرف فهو يعظم ويقدس كتاب الكافى للكلينى والاحتجاج للطبرسى وغيرها، ويترحم فى كتبه على المجوسى حسين النورى الطبرسى صاحب كتاب «فضل الخطاب فى إثبات تحريف كتاب رب الأرباب» وتجده يوثق كتاباً حوى «دعاء على على صممنى قريش» وهما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، وفيه وصف الشيخين اللذين حرفا كتابك[٦] وله تفسير باطنى فى بعض الآيات مثلاً فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ [النساء:٥٨]. فقد أمر الله الرسول ﷺ برد الإمامة إلى أهلها وهو أمير

---

(١) الحكومة الإسلامية للخمينى ص(٥٢). (٢) أصول الدين، ص(٢٩٨).

(٣) الشفاء(ج١/ ٢٩٠). (٤) منهاج السنة (ج١/ ١٧٧).

(٥) الرد على الرافضة ص(٢٩). (٦) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة(ج٢/ ٢٣٧).

المؤمنين وعليه هو أن يردها إلى من يليه وهكذا..»[١].

وأما اعتقاده في الصحابة : فإن معتقد الاثنى عشرية : لا ولاية إلا بالبراءة من أعدائهم وهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فالخميني يرى مشروعية التبرؤ من هؤلاء الأخيار والتولى للاثنى عشرية فى الصلاة، فيذكر أن المصلى يشرع له أن يقول في سجوده : «الإسلام دينى ومحمد نبيى وعلى والحسن والحسين - تعدهم إلى آخرهم - أئمتى بهم أتولى ومن أعدائهم أتبرأ»[٢].

ويطعن فى الصحابة لمخالفتهم النص المزعوم على إمامة على يقول :«وفى غدير خم فى حجة الوداع عينه - يعنى عليا - النبيﷺ حاكماً من بعده، ومن حينها بدأ الخلاف يدب فى نفوس القوم»[٣].

وكتابه الحكومة الإسلامية وغيرها من كتبه مليئة بالانحراف عن الصراط المستقيم، فالخمينى لا يختلف فى اعتقاده عن الرافضة إن لم يكن أشد غلوا وشططاً، ونشط الخمينى قبل وفاته محاولاً بسط سلمان الشيعة على شعبه بالقوة، وقامت دولته بتصدير الثورة كما يقولون، واعتمدت الشيعة على المراوغة والكذب والتضليل، وهؤلاء الجدد لا يختلفون عن شيعة الأمس فى المراوغة والكيد، وفى الغلو أيضاً.

ويعتمدون على مبدأ التقية فى جلب الناس حولهم، وإليك ما قاله الخمينى لأتباعه فى أحد خطاباته :«لا تبعدوا الناس عنكم الواحد تلو الآخر، لا تكيلوا التهم لهم بالوهابية تارة، وبالكفر تارة أخرى، فمن يبقى حولكم إذا عمدتم إلى ممارسة هذا الأسلوب؟»[٤].

ولهذا أمر الخمينى الحجاج الإيرانيين بأن يصلوا مع أهل السنة تقية منهم

---

(١) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة(ج٢ /٢٣٧) . واستفدت من هذا الكتاب فى هذا الفصل.
(٢) الخمينى« تحرير الوسيلة» (ج١ /١٦٩).
(٣) الحكومة الإسلامية ص(١٣١).
(٤) فرق معاصرة للعواجى(ج١ /٢٦٢).

وخداعاً للناس، كما كان يفعل قادة الشيعة، حينما كانوا يصلون خلف أهل السنة أحياناً ثم يعيدون صلاتهم بعد ذلك، كما صرح بهذا أحد علماء الشيعة المعاصرين، ولقد بلغ الحقد الشيعى على المسلمين، وخصوصاً أهل السنة فى عصرنا الحاضر إلى حد الاستهتار بدماء المسلمين وأغراضهم وتهديد أمنهم فى بيوتهم، ولعل ما فعلوه فى مكة فى ١٤٠٧ هـ أقوى شاهد على حقدهم ونظرتهم للمخالفين لهم، حينما تظاهر فى حرم الله بمكة ما يقرب من مائة وخمسين ألفاً منهم،وهجموا يريدون الكعبة، وتجمعوا فى مظاهرات غوغائية، وكانوا يهدفون إلى تحقيق مخطط رهيب رافعين شعاراتهم وصور زعيمهم الخمينى، وتقدموا رجالاً ونساء يريدون الحرم، لولا أن الله تعالى بفضله ومنه أفشل مخططهم وحيل بينهم وبين دخول الحرم واشتبكوا مع المسلمين والجنود وبقية الحجاج فى مذبحة عظيمة ، وأوعزوا إلى أتباعهم وعملائهم فى حج عام ١٤٠٩ هـ بعمل متفجرات حول الحرم المكى الشريف فى يوم ٧ من ذى الحجة وراح ضحيتها حجاج أبرياء جاؤوا لأداء فريضة الحج[١].

وأما عن تعذيبهم لأهل السنة فى إيران فذكر عبد الله محمد الغريب فى كتابه أهل السنة فى إيران أنواعاً وأشكالاً من التعذيب والتنكيل والقتل والاغتصاب، وإليك بعض أساليب الاضطهاد والتعذيب والتقتيل التى اتخذها أولئك الأشرار تجاه أهل السنة فى إيران :

١ ـ ربط الأرجل بالحبال وضربها بالأسلاك .

٢ ـ ربط الأيدى من وراء، ووضع المسجون فى زاوية من السجن، وصب الماء أو النفط تحته، فعلوا هذا مع عدد من المسلمين.

٣ ـ ربط المسجون وضربه فى المواضع المختلفة من جسده من عشر إلى مائة وخمسين ضربة، فإن مات فذلك، وإلا استمروا على هذه الحالة مدة خمسة عشر يوماً .

٤ ـ يضعون المسجون فى الاصطبل ويتركونه إلى أن يموت .

---

(١) فرق معاصرة، (ج١ / ٢٦٣).

٥ - ومن أنواع التعذيب سلخ جلد الرأس وثقبها وثقب العين بالمثقب وإحراق الأسير حيا وتقطيع الأعضاء وقلع الأظفار(١).

وهذا قليل من كثير إنهم يبغضون الصحابة ويشككون فى القرآن ويطعنون فى السنة، فماذا ننتظر منهم؟؟!.

هل يمكن التقريب بين أهل السنة والشيعة؟

إن كل محاولات التقريب بين السنة والشيعة باءت بالفشل؛ لأن الخلاف بيننا وبينهم فى الأصول وليس فى الفروع.

ولن يجتمع السنة والشيعة إلا إذا تخلى أحد الطرفين عن معتقده.

فإن علماء الشيعة يرون التقريب مع أهل السنة، عندما يشتم أهل السنة الصحابة ويعتقدون معتقداتهم الباطلة، وهذا ما خرج به الشيخ الدكتور مصطفى السباعى من تجربته فى هذا الموضوع مع أحد شيوخ الشيعة، واسمه عبد الحسين شرف الدين الموسوى حيث إن الدكتور السباعى كان متحمساً لفكرة التقريب واتصل بسياسيين وأدباء وتجار، وأعطوه عهوداً وكلاماً معسولاً وعلى رأسهم الشيخ الشيعى عبد الحسين الذى كان متحمساً ومؤمناً بها، وإذا بالشيخ الموسوى يخرج كتاباً فى أبى هريرة رضي الله عنه ملىء بالسباب والشتائم، بل انتهى فيه إلى القول: «بأن أبا هريرة رضي الله عنه كان منافقاً كافراً وأن الرسول قد أخبر عنه بأنه من أهل النار»(٢).

يقول السباعى: «لقد عجبت من موقف عبد الحسين فى كلامه، وفى كتابه معاً، ذلك الموقف الذى لا يدل على رغبة صادقة فى التقارب ونسيان الماضى»(٣).

وإن أهداف الشيعة من مسألة التقريب: أن يفتح لهم مجال لنشر عقائدهم فى ديار السنة، وأن يستمروا فى طعن الصحابة الكرام، وأن يسكت أهل السنة عن بيان الحق وإن سمع الروافض صوت الحق يعلو ماجوا وهاجوا قائلين: إن

---

(١) أهل السنة فى إيران، ص(٥٤).

(٢) السنة ومكانتها فى التشريع للسباعى، ص(٩). (٣) المصدر السابق، ص(١٠).

الوحدة الإسلامية فى خطر.

تجربة الشيخ موسى جار الله:

إن موسى جار الله من تركستان قازانى روسى، وصل إلى منصب شيخ مشايخ روسيا، كان فى نهاية العهد القيصرى، وبداية الحكم السوفيتى الملحد صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى أمور مسلمى روسيا الذين كانوا يزيدون عن الثلاثين مليون نسمة، ثم هَبَّ عليه إعصار الشيوعية فأصبح بعيداً عن دياره وأهله، له تآليف ورسائل وكتب، تنقل بين الهند والحجاز ومصر والعراق وإيران، قال عن نفسه: «كان بوسعى أن أغدو كاتب روسيا الأول وأحد زعماء الطليعة فيها لو أننى تخليت عن إيمانى، ولكننى آثرت أن أشترى الآخرة بالدنيا...»(١).

وهذا العالم الجليل مُلِم بلغات متعددة منها الفارسية، والتركية، والتترية، والروسية، وتضلع فى اللغة العربية، وتعلم أصولها وصرفها ونحوها وبيانها وقريضها، فلا تكاد تذكر أمامه مادة من مواد اللغة إلا أجابك على الفور عما إذا كانت وردت فى القرآن أم لا، وكم مرة وردت وفى أى سورة، لأنه مستظهر أتم الاستظهار»(٢).

فحاول هذا العالم الجليل أن يجمع شمل الأمة، وأن يوحد أهل السنة والشيعة وبذل جهوداً فى هذا الجانب عظيمة، فبدأ بدراسة كتب الشيعة وطالعها باهتمام كما يذكر أنه طالع «أصول الكافى وفروعه» و«من لا يحضره الفقيه» وكتاب «الوافى» و «مرآة العقول» و «بحار الأنوار» و «غاية المرام» وكتباً كثيرة غير هذه الكتب(٣).

ثم زار ديار الشيعة، وعاش فيها أكثر من سبعة أشهر يزور معابدها ومشاهدها ومدارسها، ويحضر محافلها وحفلاتها فى العزاء والمآتم، ويحضر

---

(١) مسألة التقريب بين السنة والشيعة، (ج٢/ ٢٠١).

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى (ج٤/ ٢٦٦).

(٣) مسألة التقريب بين السنة والشيعة (ج٢/ ٢٠١).

حلقات الدروس فى البيوت والمساجد وصحونها، والمدارس وحجراتها، وأقام بالنجف أيام المحرم، ورأى كل ما تأتى به الشيعة أيام العزم ويوم عاشوراء».

وخرج هذا العالم الجليل بنتيجة علمية عملية وهى أن كتب الشيعة قد أجمعت على أمور لا تتحملها الأمة. واتفقت على أشياء كثيرة لا يرتضيها الأئمة ولا تقتضيها مصلحة الإسلام، وتناقض أكثر مصالح الأمة، ثم هى جازفت فى مسائل كثيرة منكرة مستبعدة ما كان ينبغى وجودها فى كتب الشيعة، ولا يظن بالأئمة اعتقادها»[١]. ولا يتحملها العقل والأدب ودعوى الائتلاف وليست إلا كيراً ينفخ فى ضرم العداء. وكلمة التوحيد توجب اليوم على مجتهدى الشيعة نزاع تلك العقائد من الكتب لتجتث جذورها من القلوب.. وإلا فإن الكلمات هراء وأثر المؤتمرات عداء[٢].

فرأى الشيخ ببصيرته النافذة وعلمه الغزير أن نقد عقائد الشيعة هو أول مرحلة من تأليف قلوب الأمة لا تأليف بدونها[٣].

وقد امتلأ الشيخ حسرة وألما مما رآه من منكرات فى كتب الشيعة وواقعها، وكان أول مساعيه فى التقريب لقاؤه مع شيخ الشيعة محسن الأمين فى طهران، وجرى بينهما بعض الحديث، ثم قدم له الشيخ موسى ورقة صغيرة كتب فيها ما يلى:

١ - أرى المساجد فى بلاد الشيعة متروكة مهملة وصلاة الجماعة فيها غير قائمة، والأوقات غير مرعية، والجمعة متروكة تماماً، وأرى المشاهد والقبور عندكم معبودة ما أسباب كل هذا؟.

٢ - لم أر فيكم لا بين الأولاد، ولا بين الطلبة، ولا بين العلماء من يحفظ القرآن، ولا من يقيم تلاوته، ولا من يجيد قراءته، أرى القرآن عندكم مهجوراً، ما سبب سقوط البلاد إلى هذا الدرك الأسفل من الهجر والإهمال، أليس

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة، ص (٢٠).
(٢) مسألة التقريب (ج٢/٢٠٣).
(٣) الوشيعة، ص (١٧).

عليكم أن تهتموا بإقامة القرآن الكريم فى مكاتبكم و مدارسكم ومساجدكم؟.

٣ - أرى ابتذال النساء وحرمات الإسلام فى شوارع مدنكم بلغ حداً لا يمكن يراه الإنسان فى غير بلادكم ، وكان تاريخ تلك الرسالة ٢٦ / ٨ / ١٩٣٤م ثم أرسل رسالة إلى علماء النجف ، وأرسل الرسالة نفسها إلى علماء الكاظمية.

فكتب فيها : « أقدم هذه المسائل لأساتذة النجف الأشرف بيد الاحترام ، بأمل الاستفادة ، بقلب سليم صاد ، كله رغبة فى تأليف قلوب عالمى الإسلام[١] الشيعة الإمامية الطائفة المحقة - يعنى على زعمهم[٢] - وعامة أهل السنة والجماعة راجياً إجابة الأساتذة جميعاً أو فرادى ، كل ببيانه البليغ ، بتوقيع يده مؤكداً بخاتمه ومهره ». ثم أورد فى الرسالة ما فى كتب الشيعة من أمور منكرة مشيراً إلى أرقام الصفحات فى كل ما يذكره ، فذكر عدة قضايا خطيرة فى كتب الشيعة تحول بين الأمة والائتلاف مثل :

١ _ تكفير الصحابة .

٢ _ اللعنات على العصر الأول .

٣ _ تحريف القرآن الكريم .

٤ _ حكومات الدول الإسلامية وقضاتها وكل علمائها طواغيت فى كتب الشيعة.

٥ _ كل الفرق الإسلامية كافرة ملعونة خالدة فى النار إلا الشيعة .

٦ _ الجهاد فى كتب الشيعة مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل حرمة الميتة وحرمة الخنزير ، ولا شهيد إلا الشيعة ، والشيعى شهيد ولو مات على فراشه، والذين يقاتلون فى سبيل الله من غير الشيعة فالويل يتعجلون .

ثم قال الشيخ بعدما نقل شواهد هذه المسائل من كتب الشيعة المعتمدة مخاطباً شيوخ الشيعة : هذه ست من المسائل ، عقيدة الشيعة فيها يقين ، فهل يبقى فى توحيد كلمة المسلمين فى عالم الإسلام أمل وهذه عقيدة الشيعة ؟.

---

(١) انظر : مسالة التقريب (٢ / ٢٠٣).

(٢) انظر : الوشيعة ص (١٧).

وهل يبقى بعد هذه المسألة، بعد هذه العقيدة، لكلمة التوحيد فى قلوب أهليها من أثر، وهل يمكن أن يكون للأمم الإسلامية، ولهم هذه العقيدة فى سبيل غلبة الإسلام فى مستقبل الأيام من سعى؟.

وذكر غير ذلك من المسائل، فى انحراف الشيعة ثم قال: «أيها الأساتذة السادة بالإفادة حتى يتوحد الإسلام وتجتمع كلمة المسلمين حول كتاب الله المبين» فانتظر الشيخ سنة وزيادة، ولم يسمع جواباً من أحد إلا من كبير مجتهدى الشيعة بالبصرة، وما كان إلا طعنا فى العصر الأول، وكان طعنه أشد من كتب الشيعة، ثم كتب الشيخ موسى جار الله كتابه القيم وسماه «الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة» ويقول: إننى أدافع بذلك عن شرف الأمة وحرمة الدين، وأقضى به حقوق العصر الأول على وعلى كل الأمة [1].

وتوفى هذا الشيخ الجليل بمصر سنة ١٣٦٩ هـ فعليه من الله الرحمة والرضوان وجمعنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وتعمدت هذا الإطناب لخطورة الدعوة الشيعية فى العصر الحديث، حيث إنها تحالفت مع النصيرية فى سوريا، ومع حزب أمل الشيعى فى لبنان، وتحالفت سراً مع اليهود والنصارى للقضاء على هذه الأمة العظيمة، كما أنى طالعت اهتمامهم البالغ بالشمال الإفريقى وغربه وحرصهم على إيصال نفوذهم إليه، والعمل على إرجاع ركامهم القديم.

ونجحو فى المغرب، وجندوا شباباً فى الجزائر، وأثروا فى تونس، وتحالفوا مع ليبيا فى أهدافهم الاستراتيجية فى حرب العراق.

بل تأكد وجود مجموعات لا يستهان بها من أبناء الشمال الإفريقى فى إيران للتتلمذ على شيوخهم والرجوع بأفكارهم المسمومة إلى بلاد الفاتحين العظام مراعين فى ذلك السرية والتدرج ودقة التنظيم.

---

(١) انظر: الوشيعة ص (٣٩).

من أفضل ما قرأت فى هذا مسألة التقريب رسالة جامعية اسمها مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة.

واستغلوا الأحداث الدامية فى الجزائر بين الحكومة وإخواننا المسلمين، فأظهر الإعلام الإيرانى عطفه وتأييده للحركة الإسلامية فى الجزائر، فتأثر كثير من إخواننا بهذا الإعلام المزيف الماكر الخادع.

ومن أراد من أبناء الصحوة أن يوسع مداركه وثقافته فى هذا الباب فليراجع ما كتبه الشيخ سعيد حوى - رحمه الله - «الخمينية شذوذ فى العقائد والمواقف» وما كتبه أحمد عبد العزيز الحمدان «ما يجب أن يعرفه المسلم عن عقائد الروافض الإمامية».

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

ثالثا: الشيعة الإسماعيلية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين:

فرقة: ساقت الإمامية إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثنى عشرية.

وفرقة: نفت عنه الإمامة، وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل، وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية.

قال عبد القاهر البغدادى فى شأن الإسماعيلية: «وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل»[١].

وقال الشهرستانى: «الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه فى بدء الأمر».

قالوا: ولم يتزوج الصادق رضى الله عنه على أمه - أم إسماعيل - بواحدة من النساء، ولا تسرى بجارية كسنة رسول الله ﷺ فى حق خديجة رضى الله عنها، وكسنة على رضي الله عنه فى حق فاطمة رضى الله عنها»[٢].

فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة، وهى تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب «الإسماعيلية» منها: الباطنية،

---

(١) الفرق بين الفرق ص(٦٢).   (٢) الملل والنحل(١/ ١٩١).

وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، ويطلق عليهم القرامطة، وقد عرفوا بهذين اللقبين فى بلاد العراق، ويطلق عليهم فى خراسان التعليمية والملحدة، وهم لا يحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم»[1].

أ- خطر المذهب الباطنى على الأمة:

اعلم أخى الكريم أن المذهب الباطنى من الأسباب التى أضعفت الأمة، وأنهكت قواها، لقد أدخل أهله عقائد فاسدة مبنية على الفلسفة القديمة، والأصول الإلحادية، فخدعوا ضعاف العقول، والذين لا حظ لهم من المنهج الربانى القويم، وتحالفوا مع النصارى والتتار ضد الإسلام والمسلمين. وعندما قوت شوكتهم وأقاموا دولة البحرين فعلوا ما تقشعر منه الجلود، وتشيب منه الرؤوس من قتل وسفك ونهب واغتصاب.

بل تجرؤوا على حجيج بيت الله الحرام، ففعل أبو طاهر الجنابى بالحجيج أفاعيل قبيحة، فدفن منهم فى بئر زمزم الكثير، ودفن كثيراً منهم فى أماكنهم من الحرام، وفى المسجد الحرام.

وعندما أقاموا دولتهم فى الشمال الإفريقى أظهروا عقائدهم الفاسدة، وقتلوا العلماء، وأذلوا أهل السنة، وهذا ما سوف تعرفه؛ لأنه من صميم البحث.

إن العلامة البغدادى أوجز عداوة الفرق الباطنية للإسلام والمسلمين فقال: «اعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس، بل وأعظم من الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذى يظهر آخر الزمان؛ لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال من وقت ظهوره؛ لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها عن أربعين يوماً، وفضائح الباطنية

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٩٢).

أكثر من عدد الرمل والقطر»[١].

وذكر ابن كثير أعمالهم التى قادها أبو طاهر الجنابى الباطنى حين وصل مكة فقال: «فانتهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل فى رحاب مكة وشعابها وفى المسجد الحرام وفى جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً، وجلس أميرهم أبوطاهر لعنه الله على باب الكعبة والرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل فى الناس فى المسجد الحرام، فى الشهر الحرام، فى يوم التروية الذى هو من أشرف الأيام وهو يقول:

أنـــا الله وبالله أنـــا ... أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا

فكان الناس يفرون منهم، فيتعلقون بأستار الكعبة، فلا يجدى ذلك عنهم شيئاً، بل يقتلون، وهم كذلك ويطوفون فيقتلون وهم فى الطواف.. إلى أن قال: «فلما قضى القرمطى لعنه الله أمره، وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة أمر أن تدفن القتلى فى بئر زمزم، ودفن كثيراً منهم فى أماكنهم من الحرم وفى المسجد الحرام» وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة، ونزع كسوتها عنها وشققها بين أصحابه...»[٢]، وقد حدد بعض العلماء عدد من قتل بثلاثة عشر ألف نسمة وقيل: زهاء ثلاثين ألفاً[٣] وكان ذلك سنة ٣١٧ هـ.

وأما متى ظهر مذهب الباطنية فاختلف العلماء فى ذلك فبعضهم قال سنة ٢٠٥ هـ، والبعض الآخر يرى سنة ٢٥٠ هـ، ونتيجة السرية المفروضة على أتباع هذا المذهب يتعذر التحديد الدقيق لزمن ظهورهم وإن كانت أقوال العلماء تترجح ما بين سنة ٢٠٠ هـ، أى بعد انتشار الإسلام وإعزاز أهله، وانطفاء نار المجوسية واندحار اليهودية، واندثار الأصنام الوثنية، وانهزام الأمة الصليبية، فأكل الحسد قلوب الخارجين عن الإسلام من هذه الأمم المهزمة، وبدؤوا يخططون فى

(١) الفرق بين الفرق ص(٣٨٢). (٢) البداية والنهاية(ج١١/١٦٠).
(٣) كشف أسرار الباطنية ص(٣٩)، سير أعلام النبلاء(١٥/٣٢١).

الخفاء بطريقة ينفسون فيها عن أحقادهم للطعن فى الإسلام وأهله، ورفع راية الشيطان وحزبه، فاتخذوا لهذا الهدف الدنىء عدة أقنعة تستروا بها لتحقيق ما يهدفون إليه منها:

١ -اعتمادهم على تأويل النصوص تأويلات تنافى ما يقرره الإسلام ويأمر به.

٢ -إظهار مذهب التشيع لعلمهم بأن مذهب التشيع يحتمل كلامهم، إذ لم يجدوا مدخلاً إلى الإسلام إلا من جهة إظهار التشيع والانتساب إلى المذهب الشيعى، وقد تم تأسيس هذا المذهب فيما يذكر الغزالى كما يلى: «تم فى اجتماع لقوم من أولاد المجوس والمزدكية من الثنوية الملحدين، وطائفة كبيرة من ملاحدة الفلاسفة المتقدمين - زاد الديلمى - وبقايا الخرمية واليهود.. جمعهم نادو شنو[(١)] فى حيلة يدفعون بها الإسلام» وقالوا: إن محمداً غلب علينا، وأبطل ديننا، واتفق له من الأعوان ما لا نقدر على مقابلتهم، ولا مطمع لنا فى نزع ما فى أيدى المسلمين من المملكة بالسيف والحرب، لقوة شوكتهم وكثرة جنودهم، وكذلك لا مطمع لنا فيهم من قبيل المناظرة لما فيهم من العلماء والفضلاء والمتكلمين والمحققين، فلم يبق إلا اللجوء إلى الحيل والدسائس، ثم اتفقوا على وضع حيل وخطط مدروسة يسيرون عليها لتحقيق أهدافهم.

ومن وسائلهم فى تحقيق الأهداف الدخول على المسلمين عن طريق التشيع، وعلى مذهب الرافضة، وإن كان هؤلاء الباطنيون يعتبرون الروافض أيضاً على ضلال، إلا أنهم رأوهم - على حد ما ذكر الغزالى - أقل الناس عقولاً، وأسخفهم رأياً، وألينهم عريكة لقبول المحالات، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات[(٢)]، وأكثر الناس قبولاً لما يلقى عليهم من الروايات الواهية الكاذبة، فتستروا بالانتساب إليهم ظاهراً للوصول إلى إضعاف الناس، فكان ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض« كما ذكر الغزالى »[(٣)] أو كما قال بعض العلماء:

---

(١) انظر: فضائح الباطنية ص(١٨ - ٢٠)، وبيان مذهب الباطنية وبطلانه ص(١٩).

(٢) فضائح الباطنية ص(١٩).

(٣) المصدر السابق ص(٣٧).

إن الإمامية دهليز الباطنية.. وهذا هو التفسير المعقول لما نلاحظ من التقارب الشديد بين الباطنية والرافضة(١).

وقال ابن كثير في حوادث سنة(٢٧٨ هـ) :وفيها تحركت القرامطة، وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون بنبوة زارادشت مزدك وكانوا يبيحون المحرمات، ثم هم بعد ذلك أتباع كل ناعق إلى باطل، وأكثر ما ينقادون من جهة الرافضة ويدخلون إلى الباطل من جهتهم؛ لأنهم أقل الناس عقولاً ويقال لهم: الإسماعيلية لانتسابهم إلى إسماعيل الأعرج ابن جعفر الصادق(٢).

ب ـ عقائد الباطنية الفاسدة:

إن المتتبع لأخبار الباطنية وفرقهم ومذاهبهم يلاحظ تناقضاً واضحاً، ويرجع ذلك إلى أهل هذه الفرقة الباطنية الخبيثة إذ أرادوا ذلك لكي تتضارب الأقوال فيهم عند الناس، وبذلك ينفون ما يريدون، ويثبتون ما يريدون وأصل مذهبهم كله مبني على الكذب والحيل والخداع، كما أن مذهبهم لا يقوم إلا على هذا التلون الكثير؛ ولذلك قال الغزالي:«والذي قدمناه في جملة مذهبهم يقتضي ـ لا محالة ـ أن يكون النقل عنهم مختلفاً مضطرباً، فإنهم لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال، فلذلك تختلف كلماتهم ويتفاوت نقل المذهب عنهم»(٣).

ولذلك يتضح للدارس أن عقائد الباطنية عبارة عن مجموعة من أفكار منحرفة من مذاهب متفرقة، كلها تخبط واضطراب واختلاف، وأحياناً يستدلون بأحاديث موضوعة ويحرفون الآيات عن مدلولها ومرادها.

وترجع عقائدهم إلى عدة نقاط منها:

١ - إنكار وجود الله.

---

(١) انظر: فرق معاصرة للعواجي،(ج١/ ٢٨٠).

(٢) البداية والنهاية(ج١١/ ٦١).

(٣) فضائح الباطنية ص(٣٨).

٢ -جحد أسمائه وصفاته.

٣ -تحريف شرائع النبيين والمرسلين.

٤ -ويسترشدون في ذلك كله بالتشيع لآل البيت أو بزعمهم التجديد والتقديم ولهم مقدرة عجيبة في وضع الشعارات والأكاذيب.

والموضوع أوسع من ذلك، ومن الكتب النافعة في هذا الباب فضائح الباطنية للغزالي، وفرق معاصرة للعواجي.

المبحث الثالث
داعية الباطنية فى الشمال الإفريقى
أبو عبد الله الشيعى

وقع الاختيار على اليمن لكى تكون مركزاً لدعوة الشيعة الإسماعيلية لبعدها عن أنظار الدولة العباسية، ومن هناك بدؤوا فى إعداد القوة العسكرية السرية التى هى عدتهم فى المستقبل، وتسلم القيادة فى اليمن رجل يدعى رستم ابن حوشب الذى استطاع أن يستقطب بعض الفرس المعادين للمسلمين، إلا أن ابن حوشب رأى أن أرض المغرب خصبة للبذور الشيعية، فأرسل من اليمن رجلين من أنصاره هما« سفيان والحلوانى » إلى طرابلس وتونس لنشر المذهب الشيعى واستطاعوا أن يتوغلوا بأفكارهم فى قبائل البرانس ذات القوة والشكيمة والعدة والعتاد، والتى تتطلع إلى إقامة دولة فى المغرب على نهج الأدارسة فى المغرب الأقصى، والأغالبة الذين عاصمتهم تونس.

ومن بين الذين اختارهم ابن حوشب فى اليمن: أبو عبد الله الشيعى حسن ابن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى من أهل صنعاء، وكان قد وقع اختيار ابن حوشب على هذا الرجل لما لمس فيه من صفات قيادية بارزة من علم وذكاء ومقدرة فى التعامل مع الناس، ويعتبر أبو عبد الله الشيعى اليمانى الصنعانى المؤسس الفعلى لدولة العبيديين الرافضة الإسماعيلية فى المغرب، فأرسله ابن حوشب بعد موت الحلوانى وأبى سفيان الداعيتين بالمغرب، وقال له :« إن أرض كتامة فى بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وسفيان، وقد ماتا وليس لك غيرها فبادر فإنها موطأة ممهدة لك » (١).

وفى ما بين ٢٨٨ هـ إلى ٢٨٩ هـ وصل أبو عبد الله الشيعى الرجل الداهية

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربى(ج٢ /٥٧) للدكتور عبد الفتاح الغنينى.

المراوغ الماكر صاحب الحيل العجيبة إلى مكة، وبحث عن وفود المغاربة التي جاءت للحج واستطاع أن يتعرف على حجيج كتامة، وتقرب إليهم بما أظهره لهم من زهد وفقه وعلم وتمكن هذا الداعية من قلوب الشيخ الكتاميين ورجع معهم موهماً إليهم أنه يريد مصر لتعليم الأولاد القرآن، وعرضوا عليه الذهاب معه إلى المغرب، فأظهر عدم الرغبة، ثم بسياسته الماكرة لبى طلبهم ونزل في القيروان ليبحث عن مواطن الضعف في دولة الأغالبة، ويجمع المعلومات لمعرفة أقوى القبائل، وما هي الوسائل النافعة للدخول في بلاد المغرب، وبعد أن أيقن أن أقوى القبائل في المغرب هي الكتامية قرر الذهاب إلى بلدة تسمى «إيكجان» وهي بلدة في جبل وعر، وعرف أنها منازل قبيلة «سكتاتة» التي هي بطن من بطون كتامة[1] ونهج في حياته نهج المعلم المؤدب الورع، وسلك سلوك الزهد والعفاف حتى تملك قلوبهم، واشتهر صيته، وأقبلت عليه القبائل البربرية وتصدى لتعليمهم وتفقيههم المذهب الشيعي، ثم دخل في الأمور السياسية ونظام الحكم ودور الإسلام في الحكم بالشورى، وفضل العلويين وأحقيتهم في الحكم.

بسبب الظلم الذي مارسته دولة الأغالبة على الناس استجابت بعض القبائل للداعية الشيعي الذي رأوا فيه المخلص وبدأ الصدام مع الأغالبة، وانتقل أبو عبد الله الشيعي إلى حصن منيع في جبال الأوراس في بلدة «تازروت» ومن هناك كان يوجد الضربات المتتالية لدولة الأغالبة، واعتمد في ذلك على فضح الأغالبة ونشر ظلمهم وبيان أن حكمهم خارج عن الإسلام وشريعة الرحمن، وأثار الأحقاد القديمة بين الدولة الأغلبية وبعض القبائل، وأعطى عهوداً ومواثيق لرجال وزعماء كتامة أن المستقبل والدولة والتمكن لهم، فخضعت له القبائل وتوالت المدن في السقوط وغنم غنائم واشتد حماس أتباعه، وساعده على ذلك انحلال وضعف دولة الأغالبة وانغماسهم في الترف، وتذمر الناس من الأمراء من ظلمهم، وأظهر أبو عبد الله من الحزم والشجاعة والمقدرة السياسية والكفاءة

---

(١) المصدر السابق (ج٢/ ٥٦).

العسكرية ما جعله ثقة لمن حوله من القادة والجنود، فأعطاه ذلك شعوراً بأن الوقت حان لكشف دعوته بأن يدعو للرضى من آل البيت النبوى الذى سيظهر عن قريب وتولى أمور الحكم.

واستطاع أبو عبد الله الشيعى أن يستولى على جميع النقط الحربية ما بين حصنه فى جبال الأوراس حتى عاصمة الأغالبة.

وفى أوائل جمادى الأولى عام ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م سقطت مدينة الأريس فى يد قوات أبى عبد الله الشيعى، وهذه المدينة هى مفتاح دخول القيروان العاصمة السياسية للبلاد، فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر فى جمادى الآخرة عام ٢٩٦ هـ، ودخل عبد الله الشيعى القيروان [١].

وأعلن عبد الله إثر هذا النصر الحاسم على الأغالبة أن الإمام الحقيقى للمسلمين هو عبيد الله المهدى وأنه قريباً سيصل إلى بلاد المغرب ويظهر العدل والمساواة، فاضم إليه بعض قواد الأغالبة، وأصبح جيشه مائتى ألف مقاتل لكى يدافعوا عن المذهب الشيعى الإسماعيلى والدولة الجديدة، ومعلوم من دراسة التاريخ أن الانتصارات تستحوذ على عوام الناس ويظنون أن المنتصر على الحق، ومع الإشاعة الشيعية القوية والانتصارات الملموسة وإيمان الناس بالمهدى المنتظر أصبح الناس قادة وجنودًا لا رأى لهم، ولا عقل، بل مثل للآلات فى التنفيذ، وحاول أبو عبد الله الشيعى أن يعتمد فى نشر مذهبه بالداعية والمناظرة لإقناع علماء السنة والجماعة من أمثال عثمان بن سعيد الحداد، إلا أنه أسقط فى يديه عندما أقاموا الحجة عليه وعلى دعاته، ولذلك اضطر أخو عبد الله الشيعى «أبو العباس» أن يستخدم القوة لقلع مذهب أهل السنة والجماعة من عاصمة الشمال الإفريقى، فمارس مع علماء أهل السنة أصناف العنف والشدة والتعذيب وضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا ألسنة بعضهم، وضربوا الرقاب وقطعوا أجزاء الجسم إلى عدة أجزاء، وصلبوا الفقهاء، وصادروا الأموال، وبطحوا الناس على ظهورهم

---

(١) موسوعة المغرب العربى (ج٢/ ٦٠).

وأمروا عبيدهم بأن يدوسوهم بالأقدام. واشتد الصراع المذهبى، وهز الدولة الوليدة فتدخل الداهية أبو عبد الله الشيعى ومنع المناظرة والمجادلة حسماً للصراع وعزل أخاه عن ولاية القيروان.

ونجح أبو عبد الله الشيعى فى تثبيت دعائم الحكم فى القيروان بواسطة زعماء قبيلة كتامة وخصوصاً سيدهم ومطاعهم« غزوية بن يوسف » وأخيه وبقية قومه، وأرسل إلى عبيد الله المهدى وابنه القاسم للمجيء إلى القيروان وشد عبيد الله من الشام رحله « من مدينة سلمية » إلى مصر، ثم برقة، ثم طرابلس متخفياً فى ثياب التجار، ولفقت قصص عجيبة فى نجاته من ولاة الدولة العباسية، ووقع فى أسر بنى مدرار أمراء سجلماسة (١).

واستطاع أبو عبد الله الشيعى الصنعانى فى ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م أن يجهز جيشاً ضخماً حطم به دولة بنى مدرار وخلص عبيد الله المهدى وابنه من السجن، وفى طريق عودته مر الجيش بتاهرت وأزال دولة بنى رستم فى عام ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م وأصبح المغرب الأوسط إلى تلمسان دولة عبيدية.

وتولى عبيد الله المهدى الذى أعلن قيام الدولة الفاطمية التى نسبها إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ لخداع الناس وتضليلهم.

وبدأت الدولة الفاطمية المزعومة تسعى للقضاء على الخلافة العباسية خصوصاً بعد أن تمكنوا من القضاء على دولة بنى مدرار فى سجلماسة ودولة رستم فى تاهرت ودولة الأغالبة فى إفريقية« تونس ».

وكانت بيعة عبيد الله المهدى فى القيروان عام ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م وانتهت ولاية أبى عبد الله الشيعى بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين(٢).

وكطبيعة الثورات تخلص عبيد الله المهدى من أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس وغزوية بن يوسف بمؤامرات متتالية وكل من كان من أنصارهم.

وهذا ملاحظ أيضاً فى دراسة التاريخ القديم والحديث، وهو أن الأصدقاء

---

(١) موسوعة المغرب العربى(ج٢/ ٦٥).

(٢) انظر: المرجع السابق ص(٧٠).

والرفقاء الذين لا تقوى لهم، وإنما تجمعهم مصالح ومبادئ فاسدة يصفون بعضهم بعضاً، وهذا حدث فى الثورة الفرنسية ١٨٧٩م، والثورة الجزائرية، والثورة السورية،والمصرية، والليبية، والعراقية، وهكذا قديماً وحديثاً.

وظهر لى أن ذلك سنة من سنن الله الجارية فى المجتمعات« من أعان ظلماً سلطه الله عليه »﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[الأنعام:١٢٩].

وذكر المؤرخون أن الخلاف الذى وقع بين عبيد الله المهدى ، وأبى عبد الله الشيعى على الأموال التى استأثر بها النزق الكاذب عبيد الله المهدى وبعضهم يرى أن أبا عبد الله الشيعى شك فى عبيد الله المهدى بأنه ليس المهدى المنتظر.

وصاحب موسوعة المغرب العربى الدكتور عبد الفتاح مقلد الغنيمى ذكر السببين[١] ولم يرجح ثم إنه دافع عن نسب العبيديين وأنه فى رأيه يرجع إلى فاطمة الزهراء، وشن حملة على من طعن فى نسب العبيديين ونسبهم إلى اليهود، أو إلى المجوس، واتهمهم أنهم موالين للخلافة العباسية فى بغداد أو الأموية فى الأندلس وأن الخلافتين شنتا حملة شعواء على النسب العبيدى.

وأقول: إن ابن كثير رحمه الله الذى نقل أقوال العلماء فى البداية والنهاية فى الطعن فى النسب العبيدى أقوى حجة، وأمتن سنداً، وأعرف بحقائق الدول ومؤسسيها، وعرف بالصدق والأمانة المتناهية، وكلامه واضح فى البداية والنهاية، وأما ابن الأثير فلم يجزم ومال إلى إثبات النسب بدون تصريح وذلك فى «الكامل فى التاريخ»[٢] وهو معروف بميوله الشيعية، وابن تيمية فى الفتاوى يؤكد ويصرح على عدم ثبات النسب الفاطمى، وإليك شهادة المؤرخ القدير ابن خلكان حيث قال: «والمحققون ينكرون دعواه فى النسب، وينصون على أن هؤلاء المنتسبين بالفاطميين أدعياء، وأنهم من أصل يهودى من سلمية بالشام، وأن

---

(١) انظر: المرجع السابق ص (٧٠).

(٢) انظر: الكامل فى التاريخ (ج٥/١١) وما بعدها.

والده لقب بالقداح، لأنه كان كحالاً يقدح العيون، وقد هلك عبيد الله سنة ٣٢٢ هـ، وتمكن حفيده المعز من الاستيلاء على مصر، واستمر ملك العبيديين نحو قرنين من الزمان إلى أن قضى عليهم بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٦٤ هـ، وأزال منها كل آثار العبيدين، وقطع شرورهم عن الناس وأراح الله العباد منهم » [١].

وعلى كل حال فأعمالهم وعقائدهم تدل على أن أبناء المسلمين من السلالة النبوية الشريفة وعلماءهم الأبرار الأطهار وفقهاءهم الأخيار براء من هذه الأقوال الشنيعة، والأفعال القبيحة، وأنا شخصياً أميل إلى أن أبا عبد الله الشيعى اتضح له أن عبيد الله المهدى رجل طامع فى الملك والجاه، ومستبد ويسعى لمجده وشعر أبو عبيد الله ببعده عن مكانته فعمل على الخلاص منه، فحال إقناع من حوله بأنه ليس هذا هو الذى يحدثهم عنه، إلا أن عبيد الله المهدى كان أسرع منه فتخلص الأخير من خصومه، وأما عن نسبه فالحق الواضح البين أن عبيد الله المهدى دعىّ [illegible] ولا صلة له بأهل البيت، وهذا ما سنبرهن عليه فى ترجمته إن شاء الله.

❧❧❧❧

---

(١) فرق معاصرة (ج١/ ٢٨٩).

المبحث الرابع
عبيد الله المهدى الخليفة الشيعى الرافضى الأول
(٢٩٧-٣٢٢ هـ/ ٩١٠ - ٩٣٤م)

ذكر الإمام الذهبى ترجمة لعبيد الله المهدى فى سير أعلام النبلاء فقال: «عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدعاة يستغوون الجبلية والجهلة»(١).

وذكر ما قيل عنه فى نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دعى بحيث إن المعز منهم لما سأله السيد ابن طباطبا عن نسبه، قال: غداً أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرَمَة من الذهب، ثم جذب نصف سيفه من غمده، فقال: هذا نسبى، وأمرهم بنهب الذهب، وقال: هذا حسبى(٢) أما مفتى الديار الليبية رحمه الله الشيخ طاهر الزاوى فقد قال فى ترجمة عبيد الله المهدى: «هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها، وهو عراقى الأصل، ولد فى الكوفة سنة(٢٦٠ هـ)، واختبأ فى بلدة سلمية بؤرة الإسماعيلية الباطنية فى شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر فى سَلَمِيَّة كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح.

وفى منطقة سلمية مقر الإسماعيلية مات على بن حسن بن أحمد بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحى(٣) ثم قال: «هذا أصل عبيد الله المهدى، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه».

وقد خالفهم فى نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جميع المسلمين فى

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء(ج١٥/ ١٤١).

(٢) المصدر السابق (ج١٥/ ١٤٢).

(٣) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص(٢٥٣).

المغرب وفى كل مكان، وفى مقدمة الذين أنكروا عليهم هذا النسب الأشراف العلويون، وإنما هم منسوبون إلى سعيد بن أحمد القداح الذين ادعوا أنه ابن إسماعيل بن جعفر الصادق من طريق النكاح الروحى الذى ذكرنا آنفاً.

وبعد أن تخلص عبيد الله المهدى من خصومه أراد أن ينشر مذهبه فى القيروان، ومن ثم الشمال الإفريقى، ولكن طلائع علماء أهل السنة والجماعة نابذوه العداء، وأقنعوا الناس بأن دولة العبيدى كفرية بعيدة عن الشريعة الإسلامية، وحدثت بين العبيديين وأهل السنة حروب طاحنة فانتقل عبيد الله المهدى إلى المهدية بعد أن بذل فى بنائها وتحصينها أموالاً طائلة، إلا أن شعور الاستقرار والاطمئنان جانب العبيديين فى الشمال الإفريقى لضراوة المقاومة التى قادها علماء أهل السنة ضدهم، فأخضع المدن بقوة السلاح وفكر فى الانتقال إلى مصر، وأرسل عدة حملات إليها إلا أنها فشلت أمام جيوش العباسيين التى قادها «مؤنس الخادم».

وكانت أشد هذه الحملات خطراً على مصر الحملة التى كانت فى عام ٣٢١هـ، واستطاع العباسيون صد هذه الحملة بفضل جهود «محمد الإخشيدى»(١).

واستمر عبيد الله فى حكمه إلى أن هلك فى عام ٣٢٢ هـ وله اثنتان وستون سنة، وكانت دولته خمساً وعشرين سنة وأشهر(٢).

وبهذا نلحظ: أن قبائل المصاميد وكتامة التفت حول الدعوة العبيدية لظنهم أنه هو المهدى المنتظر، ونجد فى التاريخ الإسلامى كثيراً من الثورات والدول التى قامت واعتمدت على هذا المعتقد. فرأيت من المناس والمهم فى بناء السياج العقيدى الصحيح على أصول أهل السنة والجماعة فى هذه المسألة أن أبين معتقد أهل السنة فى قضية المهدى المنتظر حتى يسهل على الناس كشف الدجالين

---

(١) موسوعة تاريخ المغرب (ج٢/ ٧٦).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (ج ١٥/ ١٥١).

الأفاكين وسأجعل معتقد أهل السنة في المهدى عقب انتهاء ترجمة العبيدى.

نجد أن عبيد الله المهدى اعتمد على ادعائه على هذه الدعوى حتى بعد أن استطاع أبو عبد الله الشيعى أن يزعزع ثقة البرابرة فيه ذهب إليه كبير كتامة وقال لعبيد الله المهدى: قد شككنا فيك، فائت بآية، فأجاب بأجوبة، قبلها عقله وقال: إنكم تيقنتم، واليقين لا يزول إلا بيقين لا بشك.

وكانت المسائل التشكيكية فى المهدى التى طرحها أبو عبد الله الشيعى على زعماء كتامة من أن الإمام يعلم الأمور قبل وقوعها، وهذا قد دخل معه بولدين.

ونص أن الأمر فى الصغير بعده، ومات الولد بعد عشرين يوماً، فلما سأل كبير زعماء كتامة عبيد الله المهدى عن الطفل قال عبيد الله المهدى: إن الطفل لم يمت، وإنه أمامك، وإنما الأئمة ينتقلون، وقد انتقل لإصلاح جهة أخرى، قال كبير زعماء كتامة: آمنت.

وقال أبو عبد الله الشيعى: إن الإمام لا يلبس الحرير والذهب وهذا قد لبسهما. وليس له أن يطأ إلا ما تحقق أمره، وهذا قد وطئ نساء زيادة الله التغلبى يعنى عبيد الله المهدى، فلما سأل كبير كتامة عبيد الله المهدى فأجاب: أنا نائب الشرع أحلل لنفسى ما أريد، وكل الأموال، وزيادة الله كان عاصيا (١).

والمقصود فى نقلى هذا اعتماد الدجالين على استخفاف عقول الناس وتغريرهم لجهلهم، واعتمادهم على معتقدات فى الأئمة من تغظيم آل البيت والإيمان بالمهدى المنتظر، وغير ذلك، فالمقام مناسب لبيان عقيدة أهل السنة فى المهدى المنتظر.



---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء(ج١٥/ ١٤٦).

المبحث الخامس
عقيدة أهل السنة والجماعة فى المهدى

بينت الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى يخرج فى آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً، كما ملئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة فى عهده نعم لم تنعمها قط، وتخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرها، ويعطى المال بغير عدد.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: « **فى زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، المال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير فى أيامه دائم** »(١).

اسمه وصفته:

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ ، واسم، كاسم أبى النبى ﷺ فيكون اسمه محمد أو أحمد بن عبد الله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ ثم من ولد الحسن بن على رضي الله عنه.

قال ابن كثير رحمه الله فى المهدى: « وهو محمد بن عبد الله العلوى الفاطمى الحسينى رضي الله عنه »(٢). وصفته الواردة: « أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف »(٣).

مكان خروجه:

يكون ظهور المهدى من قبل المشرق، فقد جاء فى الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **يقتل عند كنزكم ثلاثة: كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم ..** » ثم ذكر شيئا لا أحفظه .. فقال: « **فإذا رأيتموه، فبايعوه، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدى** »(٤).

---

(١) النهاية، الفتن والملاحم، (ج١ / ٣١)، تحقيق د. طه زينى.
(٢) النهاية، الفتن والملاحم (ج١ / ٢٩).
(٣) الأجلى: الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذى انحسر الشعر عن جبهته.
(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدى (ج٢ / ١٣٦٧)، ومستدرك الحاكم (٤ / ٤٦٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.
- جل مبحث المهدى المنتظر اختصرته من كتاب أشراط الساعة، وهو رسالة ماجستير ليوسف الوابل.

قال ابن كثير - رحمه الله : « والمراد بالكنز المذكور فى هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدى، ويكون ظهوره من بلاد المشرق » لا من سرداب سامراء، كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه فى آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان، لا من كتاب، ولا من سنة، ولا معقول صحيح، ولا استحسان.. إلى أن قال :« ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سود أيضاً وهو زى عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها : العقاب ».

إلى أن قال :« والمقصود أن المهدى الممدوح الموعود بوجوده فى آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث »(١).

٢ - وذكر الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :« **كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟!** »(٢).

٣ - وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« **لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة** » إلى أن قال :« **فينزل عيسى ابن مريم ﷺ، فيقول أميرهم : تعال صل بنا فيقول : لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة** »(٣).

والأحاديث التى وردت فى الصحيحين تدل على أمرين :

أحدهما : أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولى لإمرة المسلمين رجل منهم.

---

(١) النهاية، الفتن والملاحم (ج١ / ٣١).

(٢) صحيح البخارى، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام(ج٦ / ٤٩١) مع الفتح.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى(ج٢ / ١٩٣) مع شرح النووى.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته للمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهداه.

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذة الأحاديث التي في الصحيحين،ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمى: محمد بن عبد الله، ويقال له المهدي، والسنة يفسر بعضها بعضاً.

١ ـ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول لله ﷺ: «**منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه**» (١).

٢ ـ وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة**» (٢).

٣ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين**» (٣).

أولاً: تواتر أحاديث المهدي:

١ ـ قال الشوكاني: «الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك» (٤).

---

(١) رواه أبو نعيم في «أخبار المهدي» صححه الشيخ الألباني رحمه الله صحيح الجامع الصغير (٥ / ٧١٧٠).

(٢) «المنار المنيف» لابن القيم، ص(١٤٧، ١٤٨).

(٣) سنن أبي داود، كتاب المهدي، (ج١١ / ٣٧٥) رقم (٤٢٦٥).

(٤) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.

٢ - قال صديق حسن خان: «الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ حد التواتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد»(١).

٣ - وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال، وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام»(٢).

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة، والمسانيد، «مسند أحمد»، و«مسند البزار»، و«مسند أبي يعلى» و«مسند الحارث بن أبي أسامة» و«مستدرك الحاكم» و«مصنف ابن أبي شيبة» و«صحيح ابن خزيمة» وغيرها من المصنفات(٣) التي ذكرت فيها أحاديث المهدي فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه.

ثانياً: المنكرون لأحاديث المهدي والرد عليهم:

ومما يؤسف له أن طائفة من الكُتَّاب من أمثال الشيخ محمد رشيد رضا، في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان، وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السنة(٤).

وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»(٥) محمد فريد وجدي، وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكُتَّاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه

---

(١) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ص(١١٢).

(٢) نظم المتناثر من الحديث المتواتر، ص(١٤٧).

(٣) عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر للعباد، ص(١٦٦ - ١٦٨).

(٤) تفسير المنار(ج٩/ ٤٩٩ - ٥٠٤).

(٥) دائرة معارف القرن العشرين،(ج١٠/ ٤٨٠).

لأحاديث المهدى، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله فى التصحيح والتضعيف، ومع هذا فقد قال ـ بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدى وطعن فى كثير من أسانيدها: « فهذه جملة الأحاديث التى خرَّجها الأئمة فى شأن المهدى، وخروجه آخر الزمان، وهى كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه »(١) .

قال يوسف الوابل فى أشراط الساعة تعليقاً على قول ابن خلدون :« ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة فى شأن المهدى، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة »(٢) .

قال الشيخ أحمد شاكر رداً على ابن خلدون :« إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين » الجرح مقدَّم على التعديل ولو اطلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدى بما غلب عليه من الرأى السياسى فى عصره »(٣) ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون فى هذا الفصل عن المهدى مملوء بالأغاليط فى أسماء الرجال ونقل العلل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين.

وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد رحمهم الله ليس صواباً.

وإنما الحجة فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والروايات المذكورة فى خروج المهدى صحيحة متواترة معنوياً، وهذا يكفى، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح، ولكن أئمة الحديث بينوا الصحيح من غيره، وصَّنفوا الكتب فى الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة فى الحكم على الرجال،حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذاب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ج١ / ٥٧٤) .

(٢) أشراط الساعة للوابل، ص(٢٦٧) .

(٣) تعليق أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد(ج٥ / ١٩٧ ، ١٩٨) .

من عبث العابثين وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة فى المهدى تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه، فإن عيَّن إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدى، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة، فإن ذلك لا يؤدى إلى إنكار المهدى على ما فى الحديث، ثم إن المهدى الحقيقى لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التى لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله.

وأيضاً، فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يُعتدُّ به، والحَكَم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمدة يُردُّ بها ما ثبت من حديث رسول الله ﷺ (١).

قال العلامة ابن القيم فى كلامه عن المهدى: « وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع، وهو: أن المهدى هو محمد بن الحسن العسكرى المنتظر، من ولد الحسين بن على لا من ولد الحسن، الحاضر فى الأمصار الغائب عن الأبصار، الذى يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يُحسَّ فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم!! ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا! اخرج يا مولانا! ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن يلد الذى	كلمتموه بجهلكم ما آنا؟
فعلى عقولكم العفاء فإنكم	ثلثتم العنقــاء والغيـلانا

---

(١) انظر: أشراط الساعة، ص (٢٦٧).

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بنى آدم وضحكة يسخر منها كل عاقل»(١) .

وإلى هنا يكفى الإيضاح فى بيان حقيقة المهدى عند أهل السنة والجماعة، وبذلك يتضح للقارئ الكريم الميزان الصحيح فى دعوة كل مدعى للمهدية .

إن من أسباب الكارثة الكبرى التى وقعت فى قبائل الشمال الإفريقى هى جهلهم بحقائق الأمور المستنبطة من الكتاب والسنة؛ ولذلك سهل على أبى عبد الله الشيعى أن يقود القبائل الكتامية إلى معتقداته الباطنية الرافضية الفاسدة .

---

(١) انظر: المنار المنيف، ص(١٥٢ ، ١٥٣).



الفصل الثانى

الصراع
بين الدولة العبيدية
وأهالى الشمال
الإفريقى

الفصل الثانى
الصراع بين الدولة العبيدية وأهالى الشمال الإفريقى

المبحث الأول
ثورة قبيلة هوارة فى طرابلس

بعد أن احتل عبيد الله المهدى طرابلس عين ماكنون بن ضبارة اللحيانى الكتامى والياً عليها، وثارت قبيلة هوارة على والى طرابلس لعدم استقرار الأمور، وحاولت أن تستفيد من فرصة العهد الجديد الذى لم تستقر فيه الأحوال فى الشمال الإفريقى.

وانضمت قبائل من زناتة ولماية وغيرها من القبائل البربرية إلى قبيلة هوارة وقاد هذه الثورة ضد العبيدين فى طرابلس أبو هارون الهوارى، وحاصروا طرابلس واحتمى ماكنون بسور المدينة.

وأنجده عبيد الله المهدى بجيش بقيادة تمام بن معارك « أبازاكى - وهو ابن أخى ماكنون ».

واستطاعت جيوش العبيديين أن تقضى على هذه الثورة الوليدة فى مهدها.

وأوعز عبيد الله المهدى إلى ماكنون بن ضبارة للتخلص من تمام بن معارك بزعمه أنه يتآمر عليه فقتل العم ابن أخيه تمام فى غرة ذى الحجة سنة ٢٩٨ هـ وشعر ماكنون بأمان واستقرار، فتطاول فى الحكم وسمح لبنى قومه من كتامة بالتعدى على أموال الناس والاستهانة بأعراضهم والتدخل فى أمورهم، فثار به أهل طرابلس سنة ٣٠٠ هـ وأخرجوه منها، فلحق بالمهدى برقادة وقتل أهل طرابلس من كان فيها من أنصار ماكنون الكتاميين، وأغلقوا أسوار المدينة، فأرسل عبيد الله المهدى أسطولاً بحرياً استطاع الأسطول الطرابلسى أن يحرقه وأن يقتل من فيه، فأرسل عبيد الله ابنه أبو القاسم بجيش عرموم بطريق البر فاعترضت له

هوارة، إلا أنه استطاع أن يهزمها ووصل إلى أسوار المدينة وضرب عليها حصاراً أفنى ما بقى من أقوات الناس فى المدينة حتى أكلوا الميتة، ولم يستطع ابن إسحاق أن يواصل المقاومة، وتفاوض أعيان طرابلس مع أبى القاسم الشيعى وطلبوا منه الأمان فأمنهم بشرط أن يسلموا محمد بن إسحاق، ومحمد بن نصر، ورجلاً آخر يقال له: الحوحجة فقبلوا ذلك وسلموهم إليه، ودخل طرابلس وأرهق أهلها بغرامة مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار، وتخلص أبو القاسم الشيعى من الأغالبة الذين كانوا فى المدينة مدعياً أنهم هم الذين حرضوا على الفتنة.

وتولى جباية مال الغرامة رجل يقال له الخليل بن إسحاق من أبناء جند طرابلس.

وجابى مال الغرامة هو الذى أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيديين وبنى منارته، وقد قتل على يد ابن كيداد اليفرنى لما استولى على القيروان سنة ٣٢٢هـ.

وبعد أن استقرت الحال فى طرابلس قفل أبو القاسم الرافض إلى رقادة وطاف بالرجال الثلاثة الذين تسلمهم من طرابلس فى شوارع القيروان على الجمال تشهيراً بهم ثم قتلهم[١].

ويتضح من هذا الثورة المبكرة ضد العبيديين أن أهل طرابلس غير راغبين فى الحكم العبيدى إلا أنهم خضعوا له بقوة السلاح.

وكتب التاريخ تؤكد على دور علماء وفقهاء طرابلس وجهادهم فى مواجهة الفكر الشيعى والمد الرافض والمعتقد الباطنى الذى تكفلت دولة بنى عبيد بنشره فى الشمال الإفريقى.

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، ص(٢٤٦، ٢٤٧).

المبحث الثانى
زحف العبيديين على برقة

فلما استقر أمر طرابلس أرسل عبيد الله جيوشه نحو برقة بقيادة حباسة بن يوسف الكتامى، وكان قاسياً شديداً نزعت الرحمة من قلبه، فتوجه فى عام ٣٠١هـ نحو سرت، لأنها لا زالت تحت حكم الأغالبة فدخلها بدون حرب، وهجرها من كان فيها من جنود العباسيين والأغالبة، ثم تقدم حباسة إلى أجدابية فهجرها من كان فيها من العباسيين والأغالبة، وطلب أهلها الأمان فأمنهم ودخلها بدون قتال، واحتل مدينة برقة وكانت جيوش العبيديين تتدافع نحو حباسة بدون انقطاع.

وكان حباسة هذا لا يفى بوعد، وكلما دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم وسبى نساءهم، ومن فظاعة أعماله التى ذكرتها كتب التاريخ ما فعله بمجموعة من الناس كانوا يلعبون بالحمام فى برقة فأمر بهم فأجلسهم حول النار، وأمر بلحومهم أن تقطع وتشوى، ثم أمر بهم فألقوا فى النار. إن هذه الأعمال الوحشية تدل على عداوة العبيديين لكل من له رائحة سُنية، وربما يتقربون بها إلى الله على زعمهم الفاسد.

ومن أعماله الشنيعة ما قام بإعلانه فى برقة: من أراد العطاء فليأت إلينا، فحضر إليه من الغد ألف رجل، فأمر بهم فقتلوا جميعاً، ثم وضع جثثهم بعضاً على بعض، وجيء له بكرسى فوضع على الجثث وجلس عليه، وأمر بالوجهاء من أهل البلد فدخلوا عليه فحبسهم وأهانهم، وقد مات منهم أناس من هول ما رأوا، وقال لهم: إن لم تأتونى غداً بمائة ألف مثقال قتلتكم جميعاً، فأحضروها له.

وانتقم من حارث ونزار ابنى جمال المزاتى فى نفر من أبناء عمومتهم فى مدينة برقة، وباع نساءهم وأخذ جميع أموالهم وخيراتهم وقد اغتم أهالى برقة من هذه الأفعال الشنيعة والأعمال القبيحة فأرسلوا إلى عبيد الله المهدى، فاعتذر الملعون وحلف يميناً كاذبة أنه ما أمر بشيء من ذلك، وكتب إلى حباسة أن يرحل عن برقة فرحل إلى جهة مصر، وأتى أموراً أقبح مما كان يفعله فى برقة (١).

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، ص(٢٤٧).

وفى سنة ٣٠٢ هـ تقدمت جيوش أبى القاسم الرافضى إلى الإسكندرية ولم ينل ما أراده ورجع مهزوماً، ذلك أن أبا القاسم أرسل قصيدة إلى بغداد يفخر فيها ببيته وبما وصل إليه ملكهم فرد عليه الصولى بقصيدة على وزنها ومنها:

فلو كانت الدنيا مثالاً لطائر لكان لكم منها بما حزتم الذنب

فغضب من هذا البيت وقال: «والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه إن قدرت أو أهلك دونه»[١].

ثورة أهل برقة على العبيديين :

وفى هذه السنة ٣٠٢ هـ انتقم أهل برقة من العبيديين فقتلوا عاملهم وكثيراً من رجال كتامة، فأرسل المهدى جيوشه سنة ٣٠٣ هـ لتأديبهم والانتقام منهم، وقاد هذه الجيوش أبو مدينى ابن فروخ اللهيفى وحاصر مدينة برقة ثمانية عشر شهراً ودخلها سنة ٣٠٤ هـ عنوة، فقتل أكثر أهلها، وأحرق دورها، وهتك أعراض نساءها وبعث بالأسرى إلى عبيد الله الذى أمر بقتلهم وبقى أبو مدينى ببرقة إلى أن مات بها سنة ٣٠٦ هـ [٢].

وفى سنة ٣٠٤ هـ حارب العبيديون أهل صقلية وغزوا مصر فى ذى القعدة سنة ٣٠٦ هـ واستولوا على الإسكندرية وأكثر الصعيد ولم يستقروا بل رجعوا.

وفى سنة ٣٠٨ هـ تم بناء المهدية وانتقل إليها المهدى، وفى سنة ٣١٠ هـ خرجت نفوسة على عبيد الله وقدموا عليهم أبابطة، فقوى شأنه وعظمت شوكته وكان مذهبهم إباضى فأرسل إليهم عبيد الله جيشاً بقيادة على بن سليمان الداعى فانهزم جيش العبيديين وفر على إلى طرابلس، ثم أعاد الكرة على نفوسة وحاصروها.

وعيَّن محمد بن عمر النفطى قاضياً على طرابلس، واستطاعت الدولة العبيدية أن تفرد نفوذها بقوة السلاح على إفريقية، وطرابلس، وبرقة، وجزيرة صقلية فى حكم عبيد الله المهدى.

---

(١) المصدر السابق، ص (٢٤٨).

(٢) انظر: تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، ص (٢٤٨).

المبحث الثالث
خروج أبي يزيد الخارجي على العبيديين

هو مخلد بن كيداد اليفرني بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن يفرن، ويفرن هذا أخو مغراو الذى تنسب إليه قبيلة مغراوة، وأمه أم ولد واسمها سيكة، وهى من بلاد السودان التى كان يتردد عليها والده للتجارة فاتخذها جارية له (١).

وعاش أبو يزيد فقيراً وطلب المذهب الخارجى فتتلمذ على النكارية(٢)، وكان فى أول أمره معلم لتحفيظ القرآن الكريم، وقضى معظم وقته فى التعليم وظهر فى بداية أمره بمظهر الزهاد، فكان يركب حماراً ينتقل به بين القبائل والجبال فلقب بصاحب الحمار، وتذكر بعض كتب التاريخ أنه لما قاد الثورة ضد العبيديين كانت سنه تقارب التسعين، واستغل العداء بين زناتة والعبيديين وما مارسته دولة الروافض من أخذ الضرائب حتى فاقوا فى ظلمهم الأغالبة واشتدت معارضة البرابرة بعد أن أعلن الروافض لعن الشيخين « أبى بكر وعمر رضى الله عنهما » على المنابر وفى المنتديات والحلقات وفى خطب الجمعة، فبدأ أبو يزيد فى إعداد العدة فى منطقة الجريد وأشغل الشمال الإفريقى بحروب طاحنة، وكانت بداية ثورته فى زمن عبيد الله إلا أن الأخير هلك قبل القضاء عليه، وثار أبو يزيد على محمد بن عبيد الله فى جهات طرابلس وتابعه كثير من البربر من شدة جور محمد بن عبيد الله المهدى لأهل السنة، وظلمه لهم، وتعذيبه إياهم، ورأى علماء أهل السنة الوقوف مع أبى يزيد ضد بنى عبيد وقال: هم أهل القبلة أى أصحاب أبى يزيد وأولئك ليسوا من أهل القبلة، وهم بنو عدو الله (٣)، وسمى أبو يزيد نفسه شيخ المؤمنين، وكان يضمر لأهل السنة أشد العداوة، لأنه كان نكاريا يستحل أموال أهل السنة ونساءهم، فانتهز كراهية أهل السنة

انظر: تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، ص(٢٤٨).
(٢) المصدر السابق، ص(٢٤٩).
سير أعلام النبلاء (ج١٥/١٥٥).
(٤) النكارية فرقة من فرق الخوارج.

لمحمد بن عبيد الله وأخفى عليهم عقيدته وأظهر لهم صداقته، ولما رأى القدرة من نفسه غدر بأهل السنة وخلى بينهم وبين محمد بن عبيد الله يقتلهم ويستبيح نساءهم ويغتصب أموالهم، ولولا أنه خاف أن يقال عنه قتل خلفاءه وأعوانه فينفض الناس من حوله لفعل بأهل السنة الأعاجيب.

ومع ذلك فقد فُضِحَ أمره وانفض الناس من حوله، وكان أبو يزيد الخارجي قاسي القلب، جباراً عنيداً، قال الشيخ طاهر الزاوي: « تدل أفعاله على نبذ الأديان، وعدم احترام الإنسانية، دخل القيروان بعد أن خرب البلاد، وقتل الرجال، وسبى النساء وشق فروجهن، وبقر بطون الحوامل، والتجأ الناس إلى القيروان حُفاة عُراة، ومات كثير منهم عطشاً وجوعاً، وشكا إليه بعض الناس ما حل بالبلاد من الخراب، فقال لهم في سخرية واستهزاء: « وما يكون لو خربت مكة والبيت المقدس » [١].

وهكذا إذا غابت العقيدة السليمة، وغاب التصور الصحيح، والمنهج الرباني يصبح الإنسان وحشاً مفترساً في حروبه لا منهج يلزمه، ولا عقل يمنعه، ولا شرع يوجهه.

إن عقيدة أبا يزيد الخارجي الفاسدة جعلته جباراً عنيداً وغادراً ومفسداً لا يراعي عهداً ولا ذمة لأحد، وهذا دليل على انطماس الفطرة، وانغماسه في وحُول المستنقعات النتنة البعيدة عن نور الوحيين « كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ».

واستطاع العبيديون الروافض القضاء على ثورة أبي يزيد في زمن إسماعيل محمد المهدي الملقب « بالمنصور » حيث استطاع المنصور أن يوقع بجيوش أبي يزيد خسائر فادحة في الأموال والرجال، وتابعه حتى تمكن منه بعد جهد جهيد وظفر به مثخناً بجراحه ومات متأثراً بها، فسلخ المنصور جلده وحشاه تبناً وصلبه » [٢].

وقال العبيديون في هذا الموقف شعراً نظمه علي بن محمد الأيادي الشاعر:

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص(٢٥١).

(٢) سير أعلام النبلاء (ج١٥ / ١٥٧).

فارتقى الملعون من خيفته ... في ذرى أعيط عال مُصعد
في ذرى حلقاء ملساء على ... ذلك المعقل ليست بصدد
معقل من فوقه الله ومن ... تحته المنصور في جيش معد
فارتقى المنصور بالسيف له ... يوم طعن كشآبيب البرد
فإذا مخلد في كف الردى ... موثق الجيد بحبل من مسد
فأبى الله سوى إعجاله ... وعذاب الله للجسم أهد
فنفى عنه أيد ما دنساً ... كان قد أسرف فيه ومرد
كأديم التيس لما لم يطب ... ريحه جرد منه فانجرد
وحشاه سالخوه سعفاً ... ماليا ما بين كعب وكند
ثم رقاه على مستحصد ... باسق أجرد ما فيه أود

وبقي مصلوباً حتى تمزق جلده وأذرته الرياح، وكان ذلك في المحرم سنة ٣٣٦هـ ، وواصل ابنه الثورة مطالباً بثأر أبيه، فأرسل إليه المنصور قائده زيرى بن مناد[١] فقتله، وانتهى أمر أبي يزيد الخارجي وابنه.

لم تكن ثورة أبي يزيد ذات خطة واضحة، ولم تكن لها أهداف لتكوين دولة، حيث إنه استطاع بجيوشه أن يكبل العبيديين خسائر فادحة، وينتزع منهم الملك ويحاصرهم في المهدية، ومع هذا وقف حائراً فأساء السيرة مع كثير من القبائل، ففقدت الثقة فيه وانفضت من حوله، وإنما الواضح في ثورته الانتقام وسفك الدماء من مخالفيه بطريقة وحشية همجية تدل على قلب حقود لكل من يخالفه، واستغرقت هذه الثورة النارية أربعة عشر عاماً انشغلت بها دولة العبيديين الروافض.

ولعل هذا من سنة الله في تسليط بعض الظالمين على بعض، حيث قتل الألوف من أتباع الطرفين وفقد الأمن والأمان في الشمال الإفريقي.

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص(٢٥١).

المبحث الرابع
القائم بأمر الله الخليفة الثانى الرافضى
أبو القاسم نزار بن عبيد الله
٣٢٢ - ٣٣٤ هـ ، ٩٣٤ - ٩٤٥ م

هو أبو القاسم محمد بن المهدى بن عبيد الله، ولد فى سلمية سنة ثمان وسبعين ومائتين، بويع له بخلافة الروافض فى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وكان مهيباً شجاعاً قليل الخير، فاسد العقيدة، خرج عليه فى سنة اثنتين وثلاثمائة أبو يزيد مخلد بن كيداد البربرى الخارجي، وجرت بينهما ملاحم وحروب، وحصره مخلد بالمهدية، وضيق عليه واستولى على بلاده ثم وسوس القائم،واختلط وزال عقله وكان شيطاناً مريداً يتزندق فأظهر سب الأنبياء، وكان أتباعه يصيحون: العنوا الغار وما حوى. وأباد عدداً من العلماء،وكان يراسل قرامطة البحرين، ويأمر بإحراق المساجد والمصاحف.

واستغل أبو يزيد الخارجي كفر أبى القاسم وألب عليه إباضية المغرب وجموع القبائل وفقهاء وزهاد القيروان، وكاد أن يتملك أبو يزيد المغرب بأجمعه وركزت ألويته عند جامع القيروان فيها: لا إله إلا الله لاحكم إلا لله، وعلمان أصفران فيهما: نصر من الله وفتح قريب، وعلم لأبى يزيد فيه: اللهم أنصر وليك على من سب نبيك(١).

وكان القائم العبيدى يقذف الصحابة علناً ويطعن فى النبى ﷺ حتى إنه أمر بتعليق رؤوس كباش على الحوانيت، وكتب عليها إنها رؤوس الصحابة، وبسبب كفرهم وطغيانهم قال الشاعر فى بنى عبيد:

الماكر الغادر الغاوى لشيعته ... شرُّ الزنادقة من صحب وتُبَّاع
العابدين إذاً عجلاً يخاطبهم ... بسحر هاروت من كفر وإبداع
لو قيل للروم أنتم مثلهم لبكوا ... أو لليهود لسدوا صمخ أسماع(٢)

(١) سير أعلام النبلاء (ج١٥/١٥٢-١٥٦).
(٢) المصدر السابق،(ج١٥/١٥٦).

المبحث الخامس
الخليفة الشيعي الرافضي الثالث في الشمال الإفريقي
المنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل
(٣٣٤ - ٣٤١ هـ ، ٩٤٥ - ٩٥٢م)

هو أبو الطاهر إسماعيل بن القائم المهدى، العبيدى الباطنى صاحب المغرب.

تولى خلافة الروافض بعد أبيه، وهو الذى قضى على ثورة أبى يزيد الخارجى النكارى.

قال عنه الذهبى :« وكان بطلاً شجاعاً، رابط الجأش فصيحاً مفوهاً يرتجل الخطب، وفيه إسلام فى الجملة وعقل بخلاف أبيه الزنديق »(١).

قلت : وقول الذهبى : وفيه إسلام فى الجملة فيه نظر.

وذكر الذهبى شيئاً فى كرمه فقال :« وقد جمع مرة من أولاد جنده ورعيته عشرة آلاف صبى، وكساهم كسوة فاخرة، وعمل لهم وليمة لم يسمع قط بمثلها، وختنهم جميعاً، وكان يهب للواحد منهم المائة دينار والخمسين دينار على أقدامهم.

ومن محاسنه أنه ولى محمد بن أبى المنظور الأنصارى قضاء القيروان، وكان من كبار أصحاب الحديث، ولقد لقى إسماعيل القاضى، والحارث بن أبى أسامة، فقال : بشرط أن لا آخذ رزقاً ولا أركب دابة، فولاه يتألف الرعية، فأحضر إليه يهودى قد سب فبطحه، وضربه إلى أن مات تحت الضرب لعلمه أنه لو رفع إلى المنصور لا يقتله فضربه القاضى مظهراً ضرب الأدب حتى قتله(٢).

توفى فى سنة إحدى وأربعين ومائة بسبب برد وريح عظيمة أصابته مع جنوده وحاشيته عندما كان يتنزه.

وكان يتودد إلى رعيته واقتصر على إظهار التشيع، وقام بعده المعز ولده(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج١٥/١٥٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (ج١٥/١٥٨).
(٣) المصدر السابق (ج١٥/١٥٩).

المبحث السادس
المعز لدين الله أبو تميم سعد
ذو القعدة ٣٤١ - ربيع ٣٦٢ هـ

هو معد بن إسماعيل المنصور، وكنيته أبو تميم، ولد بالمهدية فى ١١من رمضان سنة ٣١٩ هـ وعهد له والده بالخلافة بعده وجلس على سرير الملك من ذى الحجة سنة ٣٤١ هـ، وهو الخليفة العبيدى الرابع الذى حكم الشمال الإفريقى.

واستطاع أن يمد نفوذه على معظم الشمال شرقاً وغرباً، ففى سنة ٣٤٢ هـ ولى باسيل الصقلى عاملاً على سرت، وولى على إجدابية ابن كافى الكتامى، وولى على برقة وأعمالها أفلح الناسب. وتوسعت أملاكه فى صقلية سنة ٣٥٤ هـ، وفى أيامه دخل اليهود إفريقية، وأصبحت حدود مملكته إلى حدود مصر، ومن ثم استطاع أن يتابع أحوال الحكام والأمراء فى مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدى فى سنة ٣٥٥ هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، وجمع الأموال الجزيلة، واختار جوهر الصقلى قائداً لتلك الجيوش التى كانت تزيد عن مائة ألف، وأمر المعز كل أمرائه أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا فى رِكاب جوهر الصقلى وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطنى إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التى قادها علماء أهل السنة فى خمس عقود متتالية فى الشمال الإفريقى، رافضين المذهب الباطنى معلنين عقائد أهل السنة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدى التابع للدولة العباسية فى مصر، فرمى بسهامه المسمومة إليها، ودفع إليها جيوشه المحمومة طالباً من أعوانه وشياطينه أن يقضوا على الخلافة العباسية الأبية ذات التوجهات السنية.

وقد حاول المعز أن يضم الأندلس السنية إلا أن رجالها البواسل منعوه من أن يصل إلى هدفه، وفي جمادى الآخرة سنة ٣٥٨ هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة خادمه جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناءه سنة ٣٦١ هـ ليكون منبراً من منابر العبيديين الروافض في بث معتقداتهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة ثم تحول بفضل الله ثم جهود صلاح الدين الأيوبي الذي قضى على العبيديين في مصر إلى قلعة من قلاع أهل السنة، ودخلت جيوش العبيديين إلى دمشق سنة ٣٥٨هـ بقيادة جعفر بن خلاف أحد قواد العبيديين[1]

رحلة المعز إلى مصر:

وبعد أن مهدت مصر للمعز العبيدي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر، ليتولى أمرها، فأسند زعامة الشمال الإفريقي إلى الأمير الصنهاجي بلكين ابن زيري وضم المعز إلى مصر كلاً من طرابلس وسرت وبرقة وكان معه شاعره الملحد الذي غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسي الذي قال:

فكأنما أنت النبي محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار
ما شئت أنت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذي تجدي شفاعته غداً ... حقاً وتخمد أن تراه النار

ومن شعره في المعز:

النور أنت وكل نور ظلمة ... والفوق أنت وكل فوق دون
فارزق عبادك فضل شفاعة ... واقرب بهم زلفى فأنت مكين

ومنه:

تدعوه منتقماً عزيزاً قادراً ... غفاراً موبقة الذنوب صفوحاً

---

(١) انظر: الفتح العربي في ليبيا ص(٣٦٢).

أقسمت لولا أن دعيت خليفة لدعيت من بعد المسيح مسيحاً
شهدت بمفخرك السموات العلا وتنزل القرآن فيك مديحا

ومنه :

وعلمت من مكنون سر الله ما لم يؤت في الملكوت ميكائيلا
لو كان آتى الخلق ما أوتيته لم يخلق التشبيه والتأويلا

وكان المعز وكذلك أجداده يستمعون إلى مثل هذه الكفريات ولا ينكرونها ويقرونهم عليها وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر فى ٣٦٢ هـ .

وقتل الملحد الكافر ابن هانئ فى برقة « مقبرة الملاحدة » فى رجب سنة ٣٦٢هـ ، وهو فى الثانية والأربعين من عمره ووجدوا جثته مرمية رمى الكلاب على ساحل بحر برقة .

وتأسف المعز على قتله وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك[١] ، واستمر المعز فى سيره ، حتى قارب الحدود المصرية ، ووصل الإسكندرية يوم ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢ هـ واستقبله وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام فى مصر .

وامتد ملك المعز من سبتة بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطى .

وبقى المعز فى مصر سنتين ونصف ، وتوفى بالقاهرة فى السابع من ربيع الأول سنة ٣٦٥ هـ ، ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة[٢] .

قال الشيخ طاهر الزاوى رحمه الله :« ودامت دولة الفاطميين ٢٦٠ سنة ، منها اثنتان وخمسون سنة بالمغرب ، ومائتان وثمان سنوات بمصر ، وعدد خلفائها أربعة عشر خليفة ، أولهم عبيد الله المهدى ، وآخرهم العاضد الذى توفى بمصر يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ وبموته انقرضت دولة الفاطميين من المشرق والمغرب

---

(١) انظر : الفتح العربى فى ليبيا ، ص (٣٦٢) .

(٢) المصدر السابق ص (٣٦٢) .

والملك لله وحده يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء »(١).

قال الذهبى رحمه الله:« ظهر فى هذا الوقت الرفض، وأبدى صفحته وشمخ بأنفه فى مصر والشام والحجاز والمغرب بالدولة العبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بنى بويه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بنى بويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج، وخرس فعزلوه وأقاموا ابنه الطائع لله، وله السكة والخطبة، وقليل من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن(٢).

وكان المعز شاعراً.

فمن شعره:

لله مـــا صنعـــت بنـــا ... تلك المحاجر فى المعاجـر(٣)
أمضى وأقضى فى النفـــو ... سن الخناجر فى الحنـاجـر
ولقـــد تعبـــت ببينكـم ... تعب المهاجر فى الهواجر(٤)

وقال الذهبى رحمه الله فى المعز: « وعاش ستا وأربعين سنة وكان مولده بالمهدية ودفن بالمعزية بالقاهرة فى عام خمس وستين وثلاثمائة »(٥).

(١) انظر: الفتح العربى فى ليبيا ص (٢٦٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (ج١٥/ ١٦٤).
(٣) المعاجر: وهو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها.
(٤) سير أعلام النبلاء (ج١٥/ ١٦٣، ١٦٤).
(٥) المصدر السابق (ج١٥/ ١٦٦).

المبحث السابع
جرائم العبيديين فى الشمال الإفريقى

لقد ارتكب الباطنيون الروافض الشيعة فى أهالى الشمال الإفريقى من أهل السنة ما تشيب منه الولدان ولا تصدقه العقول، وأنزلوا غضبهم وصبوا سخطهم على العلماء خاصة:

١ ـ فعندما ادعى عبيد الله الرسالة أحضر فقيهين من فقهاء القيروان وهو جالس على كرسى ملكه وأوعز إلى أحد خدمه، فقال للشيخين: « أتشهدا أن هذا رسول الله؟ فقالا بلفظ واحد: والله لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان: إنه رسول الله، ما قلنا ذلك. فأمر بذبحهما »[١] وهذان الشيخان المغربيان هما: ابن هذيل وابن البردون.

قال الذهبى عن ابن بردون: « هو الإمام الشهيد المفتى، أبو إسحاق، إبراهيم ابن البردون الضبى مولاهم الإفريقى المالكى، تلميذ أبى عثمان الحداد »[٢].

وطلب منه لما جرد للقتل: أترجع عن مذهبك؟ قال: أعن الإسلام أرجع؟ وقيل: فى سنة تسع وتسعين ومائتين[٣] إن عبيد الله المهدى الزنديق لم يدع الرسالة فحسب، بل سمح لأتباعه أن يغرقوا فى كفرهم حتى ألهوه فقد كانت أيمانهم المغلظة: « وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا الذى برقادة ». ومن أهم من ادعى معرفة الغيب والغيب لا يعلمه إلا الله وهذا الأمر من خصوصيات الألوهية، فمن ادعاه لغير الله يقع فى الشرك والكفر العظيم، قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج١٤/٢١٧). (٢) المصدر السابق (ج١٤/٢١٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (ج١٥/٢١٥).

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[النمل: ٦٥].

كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله ﷺ :«من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت...» . وجاءت الأحاديث في النهى عن الحلف بالآباء[١].

٢ ـ لقدكان شعراء الدولة العبيدية يمدحون خلفاءهم إلى درجة الكفر البواح وينشرونها بين الناس، وقد ظهر لك في شعر ابن هانئ الأندلسي في مدحه للمعز وكان أحد شعرائهم مدح عبيد الله فقال:

حل برقادة المسيـــح ... حل بهـــا آدم ونـوح
حل بها الله ذو المعالى ... فكل شيء سواه رايح[٢]

كما شبه شعراؤهم المهدية بمكة المكرمة وقصر المهدى بالكعبة.

هى المهديــة الحــرم الموقـــى ... كما بتهامة البلد الحـرام
وإن لثم الحجيج الركن أضحى ... لنا بعراص قصركم التثام[٣]

٣ ـ شنوا حرباً نفسية على أهل السنة وذلك بتعليق رؤوس الأكباش والحمير على أبواب الحوانيت والدواب وكتبوا عليها أسماء الصحابة رضى الله عنهم، (لعنهم الله أنى يؤفكون) وأظهروا سب الصحابة رضى الله عنهم، وطعنوا فيهم وزعموا أنهم ارتدوا بعد النبى ﷺ وخصصوا دعاة للنداء بذلك في الأسواق.

ومن ذكر الصحابة بخير أو فضل بعضهم على على رضي الله عنه قتل أو سجن[٤].

٤ ـ عمل العبيديون على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنيين؛ ولذلك أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد، وجعل اسمه بديلاً منهم، واستولى هذا الرافضى الخبيث على أموال

---

(١) انظر: كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص (٩٠).
(٢) مدرسة الحديث في القيروان (ج١/ ٧٢).
(٣) البيان المغرب (ج١/ ١٨٤).
(٤) مدرسة الحديث في القيروان (ج١/ ٧٣).

الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العباد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح[١].

٥ - حرص العبيديون على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم؛ ولذلك جعلوا بوقا يضربونه في أول الليل فمن وجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء[٢].

وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ [غافر:٢٩]

٦ - أتلفوا مصنفات أهل السنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التجيبي(ت٣٤٦ هـ) توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها« ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه »[٣].

٧ - حرموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادي عليه :« هذا جزاء من يذهب مذهب مالك »، ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم كما فعلوا بالفقيه المعروف بالهزلي « أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد » المتوفى في عام تسع وعشرين وثلاثمائة[٤].

٨ - منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني

---

(١) انظر: رياض النفوس (ج٢/ ٥٦).

(٢) انظر: رياض النفوس (ج٢/ ٢٩) وجل هذا المبحث من كتاب مدرسة الحديث في القيروان مع تصرف واضح.

(٣) المصدر السابق (ج٢/ ٤٢٣).

(٤) المصدر السابق(ج٢/ ٥٦).

عبيد فكان أبو محمد بن أبى زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبى بكر بن اللباد، شيخ السنة بالقيروان فى خفية، ويجعلان الكتب فى أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بنى عبيد »(١).

وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية فى العالم الإسلامى تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كليا، وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التى لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

٩ - أجبروا الناس على الدخول فى دعوتهم فمن أجاب تركوه، وربما ولوه بعض المناصب، ومن رفض قُتِلَ، كما فعلوا عقب أول جمعة خطبها عبيد الله بالقيروان، وقعت بين الدولة العبيدية وأهل القيروان مقتلة عظيمة، فأمر الشيعى بالكف عن العوام، وافتعل مناظرات صورية، فدارت على علماء السنة محن عظيمة، وقتل منهم عدة آلاف بسبب تمسكهم بإسلامهم ودفاعهم المستميت عن السنة، قال القابسى: « إن الذين ماتوا فى دار البحر - سجن العبيديين - بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل فى العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح »(٢) هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم فى شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية، وقد خمل ذكر كثير من العلماء الذين آثروا اعتزال الفتنة، مثل أبى محمد الوردانى(٣) ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهل الشمال الإفريقى إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بأصول أهل السنة والجماعة(٤).

١٠ - عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض عمن تبع دعوتهم حيث يقع إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فرواً مقلوباً، داباً على يديه ورجليه، فيقول لهم: « بَحْ » ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: « فأما دخولى على يدى ورجلى فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا

---

(١) انظر: مدرسة الحديث بالقيروان (ج١/ ٧٦).

(٢) المصدر السابق (ج١/ ٧٤). (٣، ٤) المصدر السابق (ج١/ ٧٥).

شىء، لا وضوء، ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أى فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لبس الفرو مقلوباً فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين، وأما قولى لكم بَحْ، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشراب الخمر...»(١).

ويعجبنى فى هذا المقام ما قاله شاعر أهل السنة فى الشمال الإفريقى أبو القاسم الفزارى فى هجاء بنى عبيد :

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم ... نالوا لهم سب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم ... فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق ... فى أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن أسود نابحاً ... وأبا قدرة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا ... عمن أصارهم الإله نجوما
ياليت شعرى من هم إن جهلوا ... دنيا، ومن هم إن عددت صميما
أمن اليهود؟ أم النصارى؟ أم هم ... دهرية جعلوا الحديث قديما
أم هم من الصابين أم من عصبة ... عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما
أم هم زنادقة معطلة رأوا ... أن لا عذاب غداً ولا تنعيما؟
أم عصبة ثنوية قد عظموا ... النورين عن ظلماتهم تعظيما؟
من كل مذهب فرقة معلومة ... أخذوا بفرع وأدعوه أروما(٢)

وستأتى قصيدته الرائية التى هجا فيها بنى عبيد وكيف نجاه الله منهم بإذن الله تعالى.

١١ ـ زادوا فى الأذان: « حى على خير العمل »، وأسقطوا من أذن الفجر « الصلاة خير من النوم »، ومنعوا الناس من قيام رمضان، وليس شىء أشد على بنى عبيد من هذه الصلاة، ومنعوا صلاة الضحى، وقدموا صلاة الظهر لفتنة الناس،

---

(١) رياض النفوس (ج٢/ ٥٠٤).

(٢) رياض النفوس (ج٢/ ٤٩٤، ٤٩٥).

أما خطبة الجمعة فقد أظهروا فيها سب الصحابة وضروباً من الكفر، فتركها الناس، وأقفرت المساجد فى زمانهم، وكان بعض أئمتهم يصلون إلى رقادة فلما انتقل عبيد الله إلى المهدية صلوا إليها[١] وكثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال[٢] بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه محمد بن الحبلى قاضى مدينة برقة.

قال الذهبى رحمه الله فى ترجمته: «الإمام الشهيد قاضى مدينة برقة، محمد بن الحبلى.

أتاه أمير برقة، فقال: غداً العيد، قال: حتى نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلد إثمهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور وكان هذا من رأى العبيدية يفطرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية فلم ير هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد، فقال القاضى: لا أخرج ولا أصلى، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضى إليه، فأحضر، فقال له: تنصل، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فعلق فى الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يسق، ثم صلبوه على خشبة، فلعنة الله على الظالمين»[٣].

١٢ - من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أرواثها وأبوالها طاهرة، لأنها خيل المهدى، فأنكر عليهم قيم المسجد، فذهبوا به إلى المهدى فقتله، يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله فى آخر حياته بعلة قبيحة: دود فى آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك»[٤].

إن أجيال المسلمين الذين يقرؤون تاريخ العبيديين لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسى لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة ولكن لا أحد يذكر - عدا الذين

(١ ، ٢) انظر: مدرسة القيروان (ج١/٧٣).

(٣) الذهبى، سير أعلام النبلاء (ج١٥/٣٧٤).

(٤) أيعيد التاريخ نفسه؟ محمد العبدة، ص(٣٩).

ترجموا للعلماء بطش هؤلاء الأوغاد الظلمة بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامى يذكرون معد بن إسماعيل اللقب بالمعز، يذكرونه وكأنه بطل من أبطال التاريخ(١).

وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدى الإسلامى لتاريخنا، بل إن المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق أو بالفكر الشيعى، أو بذلت لهم أموال لطمس الحقائق التى لابد من بيانها للأجيال الصاعدة لتعرف عدوها من صديقها، ولتعرف أن الأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح، وأن هؤلاء الملاعين من أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة البيضاء الناصعة التى تلقفتها جموع أهل السنة والجماعة من الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه الغر الميامين الطاهرين الطيبين رضى الله عنهم أجمعين.



(١) أيعيد التاريخ نفسه؟ محمد العبدة، ص(٤٠).

المبحث الثامن
موقف علماء أهل السنة وأساليب المقاومة

لقد قاوم علماء أهل السنة المد العبيدى الرافضى بكافة الأساليب المتاحة لهم من حجة وتعليم ودعوة وحمل للسلاح ضد الطغاة الظالمين، وتمحورت طرقهم فى عدة أساليب منها:

١ - صمود العلماء والفقهاء ضد أعمال العبيديين وتحملهم للأذى والسجن والقتل مما ساهم فى تثبيت عوام المسلمين على عقيدة أهل السنة، وقد عمل العبيديون على إخلاء الساحة من العلماء بالترغيب وضمهم فى دعوتهم أو بالترهيب حتى يسقط العامة.

٢ - قاطع العلماء جميع مؤسسات الدولة العبيدية فلا يختصمون إلى قضائهم، ولا يصلون وراء أئمتهم، ولا يأتون مهنئين، ولا معزيين، ولا يتوارثون معهم، ولا يصلون على موتاهم، ولا يناكحونهم[١].

وبرز فى هذا العمل الجليل العلامة الفقيه أبو يوسف جلبة بن حمود بن عبد الرحمن الذى قاطع العبيديين علانية فى أول خطبة لبنى عبيد فى جامع القيروان فعندما سمع ما لا يجوز سماعه قام قائماً وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ومشى إلى آخر باب فى الجامع - جامع القيروان والناس ينظرون إليه حتى خرج من الباب وهو يقول: قطعوها قطعهم الله، فمن حينئذ ترك العلماء حضور جمعتهم وهو أول من نبه على ذلك[٢].

٣ - حصن علماء أهل السنة أهل الشمال الإفريقى بالفتاوى التى أوضحت كفر بنى عبيد، وأنهم ليسوا من أهل القبلة، كما كفروا من دخل فى دعوتهم راضياً، ومن خطب لهم فى دعوتهم، وقد انتشرت هذه الفتاوى، وعرفها الخاص

---

(١) انظر: مدرسة أهل الحديث فى القيروان (ج١ / ٧٨).

(٢) انظر: رياض النفوس للمالكى (ج٢ / ٤٣).

والعام، فكانت حاجزاً منيعاً بين العوام، وبين التردى فى دعوة الرافضة [١] ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين حصنوا الأمة بمنهج أهل السنة والجماعة فى الشمال الإفريقى فى تلك الفترة الحرجة الشيخ أبو إسحاق السبائى رحمه الله، والذى رأى أن الخوارج من أهل القبلة فاجتهد فى الوقوف معهم ضد الكفرة العبيديين.

قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولانى: « خرج الشيخ أبو إسحاق السبائى رحمه الله تعالى مع شيوخ إفريقية إلى حرب بنى عدو الله مع أبى يزيد فكان أبو إسحاق يقول - ويشير بيده إلى عسكر أبى يزيد: هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة يريد عسكر بنى عدو الله فعلينا أن نخرج مع هذا الذى من أهل القبلة لقتال من « هو » على غير القبلة - وهم بنو عدو الله فإن ظفرنا « بهم » لم ندخل تحت طاعة أبى يزيد؛ لأنه خارجى، والله عز وجل يسلط عليه إمام عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا ».

والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبد الملك مروان بن نصروان، وأبو إسحاق السبائى، وأبو الفضل المسمى، وأبو سليمان ربيع القطان [٢].

وكان ربيع القطان أول من شرع فى الدعوى إلى الجهاد ضد العبيديين وندب الناس وحضهم عليه.

ولما حضرت صلاة الجمعة طلع « الإمام » على المنبر، وهو أحمد بن محمد بن أبى الوليد وخطب خطبة أبلغ فيها، وحرض الناس على الجهاد وأعلمهم بما « لهم » فيه من الثواب، وتلا هذه الآية: ﴿ لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ ﴾[النساء: ٩٥].

يا أيها الناس جاهدوا من كفر « بالله » وزعم أنه رب من دون الله تعالى وغير أحكام الله عز وجل، وسب نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه.

فبكى الناس بكاء شديداً، وقال فى خطبته: « اللهم إن هذا القرمطى الكافر

---

(١) رياض النفوس للمالكى (ج٢ / ٣٤٠).
(٢) المرجع السابق (ج٢ / ٣٤٣).

المعروف بابن عبيد الله المدعى الربوبية من دون الله، جاحداً لنعمك ، كافراً بربوبيتك طاعناً على أنبيائك ورسلك، مكذباً لمحمد نبيك وخيرتك من خلقك، ساباً لأصحاب نبيك، وأزواج نبيك أمهات المؤمنين، سافكاً لدماء أمته، منتهكاً لمحارم أهل ملته، افتراء عليك، واغتراراً بحلمك، اللهم فالعنه لعناً وبيلاً، واخزه خزياً طويلاً، واغضب عليه بكرة وأصيلاً، واصله جهنم وساءت مصيراً، بعد أن تجعله فى دنياه عبرة للسائلين، وأحاديث فى الغابرين، وأهلك اللهم شيعته، وشتت كلمته، وفرق جماعته، واكسر شوكته، واشف صدور قوم مؤمنين، ونزل فصلى الجمعة ركعتين وسلم، وقال: ألا إن الخروج غداً يوم السبت إن شاء الله(١).

وركب ربيع القطان فرسه وعليه آلة الحرب، وفى عنقه المصحف، وحوله جمع من الناس من أهل القيروان متأهبون معدون لجهاد أعداء الله، وعليهم آلة الحرب فنظر إليهم القطان، فسر بهم وقال: الحمد لله الذى أحيانى حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك، وإعزاز دينك، يا رب بأى عمل وبأى سبب وصلت إلى هذا؟ ثم أخذ فى البكاء حتى جرت دموعه على لحيته، ثم قال لهم: لو رآكم محمد رسول الله ﷺ لَسُرَّ بكم، وقال فى موطن آخر بعد أن أنصت الناس: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣]، ثم قال: ﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٣ – ١٥].

ثم أشار بيده وقال: اذكروا الله يذكركم، فكبر الناس، ومشى حتى بلغ الجامع ودخل فى قتل أعداء الله حتى قتل سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مقبلاً غير مدبر(٢) واستشهد معه فضلاء وأئمة وعباد صالحون.

٤ ـ قاطع العلماء من استجاب وداهن العبيديين من الفقهاء وإن لم يدخل فى

(١، ٢) رياض النفوس للمالكى (ج٢/ ٣٤٣، ٣٤٤).

دعوتهم؛ ولذلك أفتى العلماء بطرح كتب أبى القاسم البراذعى(١) .

٥ - فتح العلماء والفقهاء بيوتهم للناس لفضح معتقدات الباطنية العبيدية، وكان أبو إسحاق السبائى يفتح داره ويأخذ فى ذم العبيديين والتحذير منهم، وكان يكثر من ذكر فضائل الصحابة والثناء عليهم، ولانتشار أمر العبيديين وكانت داره كالمسجد لكثرة من يقصدها من الطلبة، وكذلك أحمد بن نصر الهوارى، وأحمد بن يزيد الدباغ، واضطروا لذلك بعد منهم العبيديون من التدريس فى المساجد، واجتهد العلماء سراً فى تعميق عقائد أهل السنة وأصولهم وفقههم فى قلوب أهل الشمال الإفريقى(٢) .

وهكذا الدعاة الربانيون والفقهاء العاملون مهما ضيق الطغاة والظلمة العتاة فإنهم لا بد أن يجدوا سبيلاً لتعليم الناس ودعوتهم إلى الرشاد .

٦ - اجتهد علماء أهل السنة فى غرس منهج أهل السنة فى أبناء الكتاميين والصنهاجيين والبرابرة الموالين للعبيديين وذلك ما قام به العلامة أبو إسحاق الجبنيانى وغيره، فإنهم كانوا يعلمون الأولاد الصغار أبناء حملة الدعوة العبيدية بحيل لطيفة وكانوا لا يأخذون منهم أجراً، ترغيباً، لهم فى الإقبال عليهم، فكان من علمهم أبو إسحاق الجبنيانى فيما بعد من أهل السنة والجماعة(٣) .

ويظهر من هذا أن الاهتمام بأبناء السياسيين والمفكرين العلمانيين ووزراء الول ومسئولى وموظفى الدولة فى كل قطر ضرورة دعوية شرعية وحركية نحو إقامة شرع الله والتمكين لدينه، وأما العداء وقطع الطرق والوسائل للوصول إلى أوكار العلمانيين ونزع أبنائهم من صولة الشياطين فأمر لا يليق بأصحاب الدعوة من أهل السنة والجماعة .

٧ - ومن وسائل علماء أهل السنة فى الذب عن عقائد السلف وسيلة

---

(١) مدرسة الحديث فى القيروان (ج١ / ٧٨) .

(٢) انظر: مدرسة الحديث (ج٢ / ٧٩) .

(٣) المصدر السابق (ج٢ / ٨٠) .

المناظرة والجدال وإفحام الخصم أمام عوام الناس، وممن سجلت لنا كتب التاريخ مآثره النيره فى هذا المضمار العلامة الفقيه العالم الربانى أبو بكر القمودى الذى ناظر أبا العباس الشيعى مناظرة أفحمه فيها[١] .

وإبراهيم بن محمد الضبى، وكان رجلاً صالحاً فقيهاً بارعاً فى العلم وقتله بنوعبيد ظلماً وزوراً .

وبرز فى المناظرة أبو محمد عبد الله بن التبان إلا أن أبا عثمان سعيد بن محمد الحداد كان أقدرهم فى هذا الباب، فقد كانت له : « مقامات كريمة ومواقف محمودة فى الدفاع عن الإسلام والذب عن السنة » .

أشهر مناظرات الإمام أبى عثمان سعيد بن الحداد :

دعاه عبيد الله المهدى وبين له عبيد الله حديث « غدير خم » : « من كنت مولاه فعلى مولاه » . وهو حديث صحيح، فعطف عبيد الله « لعنة الله عليه » فقال لأبى عثمان فما للناس لا يكونون عبيدنا؟ فقال له أبو عثمان : أعز الله السيد لم يرد ولاية الرق، وإنما أراد ولاية فى الدين، قال : فقال الله عز وجل :﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فما لم يجعله الله عز وجل لنبى لم يجعله لغير نبى، وعلى لم يكن نبيا، وإنما كان وزير النبى ﷺ ، فقال عبيد الله له : انصرف لا ينالك أحد »، ويذكر أن أبا عبد الله الشيعى قال له يوماً : القرآن يقر أن محمد ليس بخاتم النبيين .

فقال له : فى قوله :﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[الأحزاب : ٤٠] .

فخاتم النبيين ليس رسول الله .

فقال له سعد : هذه الواو ليست من واوات الابتداء، وإنما هى من واوات العطف

---

(١) انظر :مدرسة الحديث، (ج٢ / ٨٠) .

كقوله عز وجل: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣] فهل (من) أحد يوصف بهذه الصفات غير الله عز وجل؟ وتكلم (عنده) يوماً فغضب من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبى موسى شيخ المشايخ وقام إليه بالرمح فمنعه أبو عبد الله من ذلك، ثم عطف على أبى عثمان فقال له: يا شيخ، لا تغضب أتدرى إذا غضب هذا (الشيخ) كم يغضب لغضبه اثنا عشر ألف سيف.

فقال أبو عثمان: ولكنى (أنا) يغضب لغضبى (الله) الواحد القهار «الذى أهلك عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً»[(١)]، وقد جمع الله للشيخ سعد الحداد جهارة الصوت وفخامة المنطق وفصاحة اللسان وصواب المعانى، وكان عالماً باللغة والنحو، وإذا لحن فى لفظة استغفر الله عز وجل، وكان إذا تكلف الشعر أجاده.

وذات مرة خرج لمناظرة الشيعى «أبو عبد الله الشيعى» فخرج معه أهله وولده وهم يبكون فقال لهم: لا تفعلوا لا يكون إلا خيراً، حسبى من له خرجت، وعن دينه ذببت.

فلما دخل على الشيعى فى قصر إبراهيم بن أحمد فكان حوله جماعة من أصحابه وجماعة مما ينسب إليهم العلم سلم ثم جلس، فقال أبو عبد الله الشيعى لإبراهيم بن يونس وقد قيل له: إن هذا الشيخ كان قاضياً على هذه المدينة بأى شىء كنت تقضى؟.

فقال له إبراهيم: بالكتاب والسنة.

فقال له أبو عبد الله: فما السنة؟.

فقال (له) إبراهيم السنة السنة.

قال أبو عثمان: فلما سمعته على قوله «السنة. السنة».

قلت لأبى عبد الله: المجلس مشترك أو خاص؟.

---

(١) انظر: رياض النفوس (ج٢ / ٦٠).

فقال : مشترك .

فقال أبو عثمان : أصل السنة فى كلام العرب ! . المثال الذى يتمثل عليه، قال الشاعر :

تريك سنة وجه غير مقرفة مأساء ليس بها خال ولا ندب

أى صورة وجه ومثاله .

والسنة محصورة فى ثلاث : الائتمار بما أمر الله به رسوله ﷺ ، والانتهاء عما نهى عنه، والائتساء به فيما فعل .

قال الشيعى : فإن اختلف عليك فيما نقل إليك عن النبى ﷺ وجاءت به السنة من طرق؟ .

فقلت له : انظر إلى أصح الخبرين نقلاً فآخذ بأصحهما، وأطلب الدليل على موضع الحق فى أحد الحديثين، ويكون الأمر فى ذلك كشهود عدول اختلفوا فى شهادة، فلا بد من طلب الدليل على موضع الحق من الشهادتين .

فقال الشيعى : فلو استووا فى الثبات؟ .

فقلت له : يكون إحداهما ناسخاً والآخر منسوخاً .

قال : فمن أين قلتم بالقياس؟ .

فقلت له : قلنا ذلك من كتاب الله عز وجل .

قال : فأين تجد ذلك؟ .

قلت : قال الله عز وجل فى كتابه العزيز : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة : ٩٥] .

فالصيد معلومة عينه، والجزاء الذى أمرنا أن نمثله بالصيد (المعلومة) عينه ليس بمنصوص فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكر عينه : بالقياس والاجتهاد، ومنه قول الله عز وجل : ﴿ **يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة : ٩٥] .

فلم يكله إلى حاكم حتى جعلها اثنين : ليقيسا ويجتهدا، فقال أبو عبد الله الشيعى : ومَنْ ذوا عدل؟ وأوما « ذوا عدل » إنما هم قوم مخصوصون بنص الآية .

قال: فقلت: هم الذين قال الله عز وجل فيهم في آية المراجعة ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق: ٢] ومثل ذلك في تثبيت القياس قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣] والاستنباط غير منصوص.

ثم عطف (أبو عبد الله الشيعي) على موسى القطان فقال له: أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى؟.

فقال له موسى: قال النبي ﷺ: «**من شربها فاضربوه بالأردية، ثم إن عاد فاضربوه بالأيدي، ثم إن عاد فاضربوه بالجريد**».

فقال له أبو عبد الله على النكير منه: أين هذا؟ أقول لك أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى، تقول: اضربوهبالأردية وبالأيدي ثم بالجريد؟.

قال أبو عثمان: فقالت له: إنما حد قياساً على حد القاذف «لأنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، فوجب عليه ما يئول أمره إليه وهو حد القاذف»(١).

فقال لموسى القطان: أو لم يقل النبي ﷺ: «**أقضاكم علي**»؟ فساق له موسى تمام نص الحديث وهو «.. **وأعلمكم بحلال الله وحرامه معاذ، وأرأفكم أبو بكر، وأشدكم في دين الله عمر**» رضي الله عنهم أجمعين.

فقال له الشيعي: وكيف يكون أشدهم في دين الله، وقد هرب بالراية يوم حنين؟.

فقال له موسى: ماسمعنا بهذا ولا نعرفه. قال أبو عثمان: فقلت له: تحيز إلى فئة كما أنزل الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ [الأنفال:١٦].

(فمن تحيز إلى فئة) كما أمر الله عز وجل فليس بفار.

فمال الشيعي بوجهه إلى بعض أصحابه فقال: أتسمع ما قال الشيخ، قال:

---

(١) انظر: رياض النفوس (ج ٢/ ٧٩).

انحاز إلى فئة كما أمر الله سبحانه.

فقال مجيباً ـ وهو يشير بيده ـ وأى فئة أكثر من رسول الله ﷺ وقد كان حاضراً ولم يتحيز وكأنه تخافت فى كلامه ويسمع من يليه.

فقالت: جاء عنه ﷺ أنه قال: «عمر فئة فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة» فسكت الشيعى (١).

وسأل أبو عبد الله الشيعى أبا عثمان الحداد فقال: أفلا أوجب قول الله تعالى عند من سمعه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾[آل عمران: ١٤٤] انقلاب أصحاب محمد ﷺ.

فقال له أبو عثمان: «لا»؛ لأن معناه أفإن مات أو قتل أفتنقلبون على أعقابكم؛ لأن معنى «أفإن مات»: استفهام، ومعنى «انقلبتم»: أفتقلبون والاستفهامان إذا جاءا فى قصة واحدة اجتزئ بأحدهما عن الآخر، وهذا الاستفهام إنما هو فى معنى التقرير بأن لا تنقلبوا على أعقابكم.

فقال له: فهل تجد فى كتاب الله عز وجل نظيراً يكون لهذا دليلاً؟.

فقال له: نعم. قول الله عز وجل: ﴿ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، أى: إنك إن مت فهم لا يخلدون، فلما التقى استفهامان أجزأ ذكر أحدهما عن الآخر، فكان لفظ الاستفهام من ذلك مراداً به التقرير: «بأنهم لايخلّدون»(٢).

وهكذا كان أبو عثمان سعد الحداد فى دفاعه ومناظرته لأجل نصر عقائد أهل السنة والجماعة.

ولما توفى رثاه الشعراء فقال فيه سهل بن إبراهيم الوراق:

---

(١) انظر: رياض النفوس (ج ٢ / ٨٠).

(٢) المصدر السابق (ج ٢/ ٨٣).

وقالوا قضى نحباً وذاق منية فيالك من خطب يحل عُرى الصبر
وكم مارق عادى سعيداً وسبه وضاق به ذرعاً وبداه بالهجر
يود بقلب ذاب همًّا وغصة لو أن أبا عثمان فى ظُلَم القبر
وأن امرءاً منكم تمنى وفاته وليس له عذر ففى واسع العذر
فليت الذى أمسى شجى فى حلوقهم يمد له حبل الحياة إلى الحشر
أليس لسان المسلمين وسيفهم إذا كادهم أهل الضلال والكفر
أليس هلال الأرض بل شمس دجنها وبدر دجاها حين أمسيت بلا بدر
يجيب وما غاصت دقائق فكره جواباً عتيداً فى أدق من السحر(١)

هذه بعض الأساليب والطرق والمناظرات التى قام بها علماء أهل السنة فى الذود والدفاع عن عقائد المسلمين، فعليهم من الله الرحمة والرضوان على ما أبلوا وأقاموا به من جهاد ودعوة وفداء.

٨ - قام شعراء أهل السنة بدور مجيد، وجهاد حميد فى الدفاع عن الإسلام والهجوم على بنى عبيد بالسنان والقوافى التى كانت على بنى عبيد أشد من السيوف القواطع، وتبوأ مركز الصدارة فى هذا الباب الشاعر المجيد أبو القاسم الفزارى، ومن أشهر ما قال قصيدته الرائية التى انتشرت فى الآفاق والبلدان التى قال فيها:

عجبت لفتنة أعمت وعمت يقوم بها دعى أو كفور
تزلزلت المدائن والبوادى لها وتلونت منها الدهور
وضاقت كل أرض ذات عرض ولم تغن المعاقل والقصور
فنجى القيروان وساكنيها إله دافعٌ عنها قديم

---

(١) المصدر السابق (ج ٢ / ١١٥).

أحـــاط بأهلهـــا علمـــاً وخُـبـــراً ... ومـــيـــزا مـــا أكنتـــه الصـــدور
وجـلـلـهـم بعـــافــيـــة وأمن ... وأسـبـل فـوقـهـا سـتـر سـتـيـر
وأثبت جلة العلمـاء فـيـهـا ... بحـــار لا تـعـــد لا بحـــورُ
ومنهـا سـادة العلمـاء قـدمـا ... إذا عُـــدُّوا وليس لهم نظيـــر
وفـيـهـا القـوم عـبـاد خـيـارا ... فـقـد طاب الأوائل والأخـيـر
هم افـتكوا سـبـايا كل أرض ... وفـادوا مـا اسـتـبـد به المغـيـر
كـفـيناهم عظائمـهـا جـمـيـعاً ... فـزالت عنهم تلك الشـرور
وسكنَّا قلوباً خـافـقـات ... أمـات عـروقـهـا ضـر ضـريرُ
وأوينـا وآسـينـا وكـنـا ... لهم أهلاً وأكـثـرهم شطيـر
فـبـات طعـامنا لهم طعـامـاً ... هنـاك ودُورنـا لـلقـوم دورُ
وكـان لنـا ثواب الله ذُخـراً ... وقـام يشكونا منهم شكور
ولولا القـيروان وسـاكنوها ... لغـاب طعـامـهم والمخ ريرُ(١)

ثم مضى فى القصيدة إلى أن قال:

وليس لنا كـمـا لهم حـصـون ... ولا جـبـل أعـاليـه وعـورُ
ولا سـور أحـاط بنا ولكن ... لنا من حـفـظ رب العـرش سُـورُ
ولا نـأوى إلى بحـر وإنـا ... إذا قـضـى القـضـا تُنحَى البحُورُ
ولكنـا إلى القـرآن نـأوى ... وفى أيمـاننا البـيض الذكـور
عـقـائق كـالبـوارق مـرهفـات ... بهـا تحـمى الحـرائم والثـغـور
وسُـمـر فى أعـاليـهن شـهب ... بهـا ظمـأ، مـواردها النحـورُ

---

(١) المصدر السابق (ج٢/٤٩٣).

إلى أن قال :

وإنا بعد من خوف وأمن ... نُحب إذا تشعثت الأمور

رسول الله والصديق حبًّا ... به تُرجَى السعادة والحبورُ

وبعدهما نحب القوم طُرًّا ... وما اختلفوا فربهم غفورُ

ألا بأبي وخالصتي وأمي ... محمد البشير لنا النذيرُ

سأهدي ما حييتُ له ثناء ... مع الركبان ينجد أو يغور[١]

(١) انظر : رياض النفوس (ج٢ /٤٩٤).



الفصل الثالث

الدولة الصنهاجية

الفصل الثالث
الدولـــــة الصنهاجيـــــة

استمال خلفاء الدولة العبيدية القبائل البربرية الصنهاجية واستبدلوها بدلاً من القبائل الكتامية وأسندوا إليها الأمور المهمة فى الدولة، وارتفع نجم الصنهاجيين فى زمن عائلة بنى زيرى الصنهاجية التى استطاعت أن تثخن فى ثورة أبى يزيد الخارجى، فأهدى العبيديون للصنهاجيين حكم إفريقية والمغرب، ومؤسس الدولة الصنهاجية هو أبو الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى (٣٦٢-٣٧٣هـ) الذى افتتح سنوات حكمه بقمع الثائرين وتمهيد البلاد.

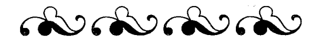
المبحث الأول
أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيرى بن مناد بن منقوش الصنهاجى
(٣٦٢-٣٧٣هـ/٩٧٢-٩٨٣م)

أصبح يوسف بلكينى بن زيزى والياً أو أميراً لكل بلاد إفريقية، وهو أول حاكم لبلاد المغرب من أصل بربرى بعد الفتح الإسلامى ، وكان متفانيًا فى خدمة العبيديين وتوسيع أملاكهم ، واشتد الصراع العنيف بين قبائل صنهاجة وقبائل زناتة ، واستعمل الحاكم الصنهاجى أبو الفتوح القوة والعنف والشدة للقضاء على سيادة قبائل زناتة ، واستطاعت الدولة الأموية فى الأندلس أن تستفيد من هذا الصراع وتوجه ضربة ماكرة للدولة العبيدية فدعمت قبائل زناتة بكل ما تملك حتى استطاعت أن تقف فى وجه الصنهاجيين التابعين للعبيديين وكانت سياسة الصنهاجيين مبنية على العنف والقوة مع الزناتيين فلم يسعوا لكسب ودهم أو مهادنتهم واستغلت الدولة الأموية هذا الصراع حتى فصلت المغرب الأقصى سيادة بنى زيرى [١] .

---

(١) موسوعة المغرب العربى (ج٢ / ٢٤ – ٣٠) .

وأظهر الأمير بلكين نشاطاً واسعاً وعملاً دؤوباً ، وكان محافظاً على تبعيته للعبيديين وولائه للمذهب الإسماعيلى الباطنى ، إلا أنه لم يتشدد هو والأمراء الذين جاؤوا بعده بمطالبة الناس بالتشيع ، فانفسح المجال نسبيًّا أمام علماء أهل السنة لنشر السنة ،وبدأت الحياة العلمية تعود إلى المساجد والكتاتيب شيئاً فشيئاً ، غير أن تلك المظاهر الرسمية من التبعية لحكام مصر والدعوة لهم على المنابر كانت تقلق العلماء وأسهمت فى إيجاد هوة عميقة بينهم وبين حكام بنى زيرى ، فمضوا فى محاربة هؤلاء الحكام الذين لم يكونوا متحمسين للدعوة الإسماعيلية ، والتف أهل الشمال الإفريقى حول علمائهم ، وواصلوا مقاطعة الدولة ، غير أن هؤلاء الحكام لم يستطيعوا الإعلان بموافقة علماء أهل السنة خوفاً على سلطانهم ، وأحسن أهل القيروان بذلك فراح علماؤهم يعملون جاهدين على نشر السنة وآراء السلف ، فعجت حلقات العلماء بطلاب العلم فى القيروان من جديد ، وكثرت المؤلفات فى بيان دين الإسلام الصحيح وكان التخلص النهائى من أتباع العبيديين ، وانتصار أهل السنة على الروافض فى الشمال الإفريقى على عهد الأمير السنى والسيف القاطع والطود المنيف الأمير المعز بن باديس .



المبحث الثانى
المعز بن باديس الصنهاجى
(٤٠٦ - ٤٤٩هـ)

قال عنه الذهبى : (صاحب إفريقية ، المعز بن باديس بن منصور بن بُلُكِّين ابن زيرى بن مناد الحميرى ، الصنهاجى ، المغربى ، شرف الدولة ابن أمير المغرب)(١) .

نودى به أميراً يوم السبت الثالث من ذى الحجة سنة ٤٠٦ هـ بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام (٢) .

استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم فى دولة صنهاجة وأثروا فى بعض الوزراء والأمراء - الذين كان لهم الفضل بعد الله فى تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة .

وأخص بالذكر العلامة أبو الحسن الزجال الذى اجتهد على الأمير المعز بن باديس فى تربيته على منهج أهل السنة والجامعة ، وأعطت هذه التربية ثمارها بعد ما تولى المعز إفريقية ، وكان عمل العلامة أبو الحسن فى السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الذين كانت الدولة دولتهم ، وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة ، ومبغض للمذهب الإسماعيلى الشيعى .

واستطاع أن يزرع التعاليم الصحيحة فى نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذى تم على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية فى الشمال الإفريقى .

وهذا درس لنا نحن الدعاة فى الاهتمام برجالات الدولة وأبنائهم من أصحاب المناهج العلمانية والبعيدة عن هدى المولى عز وجل ، وليكن شعار العاملين فى هذا المجال قوله تعالى : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج١٨ / ١٤٠) .

(٢) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا (ص٢٨٦) .

عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾[الكهف : ١٩، ٢٠] .

وقد وصف المؤرخون المعز بن باديس بأوصاف فى غاية الروعة والجمال، فقال فيه الذهبى : « وكان ملكًا مهيبًا ، وسريًّا شجاعاً ، عالى الهمة ، محبًّا للعلم ، كثير البذل مدحه الشعراء ، وكان مذهب الإمام أبى حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمادة الخلاف ، وكان يرجع إلى الإسلام ، فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسى ، فبعث إليه المستنصر يتهدده ، فلم يخفه »(١) .

ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الذى هدده فيه وقال له : هلا اقتفيت آثار آبائك فى الطاعة والولاء ، فى كلام طويل ، فأجابه المعز : إن آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم (٢) .

وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز تدرج فى عدائه للإسماعيلية ولحكام مصر ، وظهر ذلك فى عام ٤٣٥ هـ عندما وسع قاعدة أهل السنة فى جيشه وديوانه ودولته فبدأ فى حملات التطهير للمعتقدات الكفرية ولمن يتلذذ بسب أصحاب رسول الله ﷺ فأوعز للعامة ولجنوده بقتل من يظهر الشتم والسب لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فسارعت العامة فى كل الشمال الإفريقى للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الإفريقى من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه .

وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الجليل الذى أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله وذكر الشعراء قوافى وأشعاراً فى مدح المعز ودونوا تلك البداية فقال القاسم بن مروان فى تلك الحوادث :

وسوف يقتلون بكل أرض كما قتلوا بأرض القيروان

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج١٨ / ١٤٠) .

(٢) تاريخ الفتح فى ليبيا ، لطاهر الزاوى ، ص (٢٨٩) .

وقال آخر :

يا معز الدين عش في رفعة ... وسرور واغتباط وجذل
أنت أرضيت النبي المصطفى ... وعتيقاً في الملاعين السفل
وجعلت القتل فيهم سنة ... بأقاصي الأرض في كل الدول(١)

استمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السنة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر ، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته ، وأعلن انضمامه للخلافة العباسية ، وغير الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم وأحرق أعلام العبيديين وشعاراتهم ، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها ١٤٥ سنة وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكتب على الآخر : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران :٨٥].

وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعتزلة والإباضية .

وفي سنة ٤٤٣ هـ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له .

وكان أول من قاد حملة التطهير على الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضلة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته أبو الحسن (٢) المتوفى عام ٤٣٢ هـ .

واشتاط الحقد الباطني وتفجرت براكين الغضب في نفوسهم وقرروا الانتقام قائد أهل السنة في الشمال الإفريقي ومن أهله الذين فرحوا بعودة بلادهم لحظيرة أهل السنة فانعقد في القاهرة مجلس رافضي باطني إسماعيلي بقيادة الخليفة العبيدي وخرجوا برأي شيطاني مفاده رمي السنية الصنهاجية الزيرية بقبائل بني

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، لطاهر الزاوي ، ص (٢٨٩) .
(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص (٢٩٠ ، ٢٩١).

سليم وبنى هلال ، فإن انتصرت الدولة الصنهاجية تكون الدولة العبيدية قد تخلصت من هذه القبائل المتعبة ، وإن انتصر بنو سليم وبنو هلال يكونوا بذلك انتقموا من عدوهم اللدود المعز بن باديس ، وكان الذى تبنى هذه الفكرة الوزير العبيدى أبو محمد ابن على اليازورى الذى شرع فى إغراء القبائل المقيمة على ضفاف النيل وأمدهم بالمال والسلاح والكراع وأباح لهم برقة والقيروان ، وكل ما يكون تحت أيديهم ، واتصل العبيديون بالمعارضين للمعز وأمدوهم بما يملكون من مال وسلاح وعتاد .

وبدأت حلقة الصراع العنيف بين المعز بن باديس والقبائل العربية المدعومة من الروافض العبيديين .

المبحث الثالث
زحف بني هلال وبني سليم وغيرهما من القبائل إلى الشمال الإفريقي

تمهيد :

كانت قبائل بنى هلال وبنى سليم تسكن الجزيرة العربية وكان مضاربها متوزعة حول المدينة النبوية ومكة والطائف ونجد ، واستطاع القرامطة أن يستغلوهم فى حروبهم ضد الخلافة العباسية والدولة العبيدية ، وتأثر بعض زعماء هذه القبائل بأفكار وعقائد القرامطة ، ولم يكن تأثيرهم عميقا وإنما كانت له أسباب اقتصادية ونزعة تمردية على الانقياد للدولة العباسية ، وفى قتال القرامطة مع العبيديين لعبت هذه القبائل دوراً بارزاً فى الشام وكانت لها شوكة ومنعة وعدة وعتاد .

فاستطاع الأمير العبيدى فى مصر أن يجلبهم ويقربهم له بالعطايا والهدايا والأموال ، واستجابت لطرح الخليفة العبيدى الذى كان حريصاً على وجود العنصر العربى فى دولته ، وأعطتهم الدولة العبيدية أراضى خصبة على ضفاف النيل ، وأعطت القبائل ولائها للدولة العبيدية ، وتبنت شعارات الدولة الباطنية لجهلها وبعدها عن فهم حقيقة دينها ، وأخلصت للخليفة العبيدى الذى قرر الانتقام من المعز بن باديس بهذه القبائل ذات الشوكة والشكيمة والمنعة والدراية بالحروب ، وخصوصاً أن الدولة العبيدية كانت لا تستطيع إرسال جيوشها بسبب انشغالها بالقرامطة ، ومشروعاتها بالشام والمشرق عموماً ؛ولأن طوائف من جيشها من نفس جنس المغاربة ؛ بل من قادتهم من هو من نفس قبيلة المعز بن باديس ، ولا سيما أن الدولة أهملت هؤلاء القادة والجنود منذ أيام العزيز والخليفة العبيدى .

وكانت القبائل العربية التى فى صعيد مصر بعضها يرجع للفتح الإسلامى قد ازدادت بعد تركهم للجزيرة العربية ومجيئهم إلى مصر فى زمن العزيز العبيدى.

واشتهرت تلك القبائل فى صعيد مصر بفعل القلاقل وإشاعة الاضطراب والفوضى فى البلاد ، فكانت هذه المرة فرصة ذهبية للتخلص منها والانتقام من عدو الدولة وقهره والتشفى منه .

وينسب للمستنصر قوله : « والله لأرمينه بجيوش لا أتحمل فيها مشقة » فدعا العرب وأباح لهم مجاز النيل إلى المغرب ، وكانت ممنوعة عنها قبل ذلك ، فعبر منهم خلق عظيم (١) .

واجتمع الأمير المستنصر العبيدى مع زعماء القبائل العربية ومنّاهم بالمساعدة المالية والمعنوية وأعطاهم خيولاً وسلاحاً وعتاداً ومالاً وكل ما يساعدهم فى تحقيق أهدافه الشريرة وأباح لهم إفريقية يفعلون فيها ما يشاؤون ، وقال لهم : « لقد أعطيناكم إفريقية وملك ابن باديس فلا تفتقرن بعدها » (٢) .

وعندما تحركت جموع العرب فى ٤٤٢ هـ - ١٠٥٠ م أرسل الوزير العبيدى الحاقد إلى المعز بن باديس رسالة قائلاً له : « أما بعد ، فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً ، وحملنا عليهم رجالاً كهولاً ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً » (٣) .

فسيطرت هذه القبائل على برقة بدون مقاومة تذكر ، وكانت برقة قد تمردت على العبيديين أيام الحاكم ، وأعلنت الطاعة للمعز أيام المستنصر ، وأحرقت المنابر التى كان يخطب فيها للعبيديين ، وأحرقت راياتهم ، وأعلنت دعوة القائم العباسى (٤) وواصلت القبائل العربية زحفها إلى طرابلس وضواحى تونس ، وكان تعداد هذه القبائل المهاجمة على الشمال الإفريقى أربعمائة ألف ، ولحقتها أفواج تترى ويذكر بعض المؤرخين أن العدد الكلى وصل إلى مليون نسمة على مراحل متعددة ، وعندما استقرت هذه القبائل فى برقة أرسلت أحد شيوخها وهو مؤنس ابن يحيى بن مرداس من رياح أحد بطون بنى هلال لينزل ضيفاً على المعز ، فعجب

---

(١) ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ، د. عبد المنعم ماجد ، ص (٢٢٣) .

(٢) انظر : تاريخ الفتح العربى ، ص (٢٩٤) .

(٣) ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ، ص (٢٤٣) .

(٤) المصدر السابق ، ص (٢٢٤) .

مؤنس من النعيم والأبهة التى كانت للمعز بن باديس ، فأكرمه المعز وأحسن فى ضيافته ، وعرض عليه المعز أن يتخذ من بنى عمه رياح جنداً له ، فأشار عليه مؤنس بألا يفعل معللاً ذلك بعدم انقيادهم واختلاف كلمتهم فلم يقتنع المعز بما قاله مؤنس .

وقال مؤنس للمعز : إنهم قوم لا طاقة لك بهم .

فقال له المعز : هم دون ذلك ، فاعتبرها مؤنس إهانة للعرب ، وظن المعز مؤنساً لا يريد أن يكون لغيره سلطان على قومه ، وصارحه بذلك .

فلما رجع مؤنس إلى قومه رغبهم ووصف لهم من خيرات إفريقية وأبهة المعز ما رغبهم فى الإسراع بالرحيل ، فانسابوا فى أرض إفريقية فى جموع لا يدرك أولها ولا ينتهى آخرها [١] .

ومن أشهر القبائل العربية التى زحفت على ملك المعز بن باديس بنو سليم بن منصور ، وبنو هلال بن عامر وهم من مضر وكانت قبائل زغبة والأثبج ، وعدى، ورياح من الهلاليين من بنى عامر بن صعصعة وبنى هاشم بن معاوية بن بكر ، وهذه القبائل مضرية عدنانية .

وقبيلة كهلان وهى قحطانية ، وقبائل أخرى كثيرة غير مشهورة .

وعندما رحلت بنو رياح والأثبج وبنو عدى إلى إفريقية يريدون اللحاق بالقيروان ، قال لهم مؤنس : ليس هذا برأى يحتاج إلى تدبير ، فقالوا له : وماذا تصنع ؟ فقال : ائتونى ببساط فأتوه به ، فبسطه وقال لهم : من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشى عليه ؟ فقالوا : ومن يقدر على ذلك ؟ فقال : أنا ، فطوى البساط وأتى طرفه وفتح منه مقدار ذراع ووقف عليه ، ثم فتح شيئاً آخر ودخل إليه وقال : هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب ، املكوها شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى عليكم إلا القيروان فأتوها فإنكم تملكونها ، فقال له رافع بن حماد – وهو أحد رؤساء العرب :« صدقت يا مؤنس ، والله إنك لشيخ العرب وأميرها ، فقد قدمناك على أنفسنا ، فلسنا نقطع أمراً دونك » .

---

(١) انظر : تاريخ الفتح العربى ، ص (٢٩٥) .

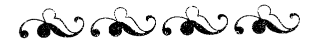
وقد اقترعوا على البلاد فخرج لبنى سليم شرقيها : برقة وما حولها ، وخرج لبنى هلال غربيها : طرابلس وقابس ، وانضم بنو جشم إلى بنى هلال .

وكان فى العرب كثير من غير بنى هلال وبنى سليم من فزارة وأشجع من بطون غطفان ، وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ، وسلول بن مرة بن صعصعة ابن معاوية ، والمعقل من بطون اليمنية ، وكلهم مندرجون فى بنى هلال وفى الأثيج على الخصوص ؛ لأن الرياسة كانت عندهم للأثيج وهلال فأدخلوا فيهم .

وكانت الأثيج من الهلاليين أوفر عدداً ، وأكثر بطوناً ، وكان التقدم لهم فى حملتهم، وكان منهم الضحاك ، وعياض ، ومقدم ، والعاصم ، ولطيف ، ودريد، وكرفة ، وغيرهم حسبما يظهر فى نسبهم .

وكان لهم القوة ، وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية[١] ومن أشراف رجالات العرب : حسن بن سرحان ، وأخوه بدر ، وفضل بن ناهض ، وهؤلاء من دريد بن الأثيج .

ومنهم ماضى بن مقرب ، وسلامة بن رزق فى بنى كبير ، فى بطون كرفة ، من الأثيج ، وذياب بن غانم ، وينسبونه فى بنى ثور ، وموسى بن يحيى ، وينسوبه فى مرداس رياح ، لا مرداس سليم . وهو من بنى صقر ، بطن من مرداس رياح . ومنهم زيد بن زيدان ، وينسبونه فى الضحاك ، وفارس بن أبى الغيث ، وأخوه عامر، والفضل بن أبى على ، ونسبهم فى مرداس وكل هؤلاء يذكرون فى أشعارهم[٢] .



(١ ، ٢) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، ص (٢٩٧) .

المبحث الرابع
الصدام المسلح بين المعز بن باديس والقبائل العربية

ذكر ابن الأثير دخول العرب إلى إفريقية فى حوادث عام ٤٤٢ هـ إلى أن قال : « ثم قدم أمراء العرب إلى المعز بن باديس فأمرمهم وبذل لهم شيئاً كثيراً ، فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان ، بل شنوا الغارات ، وقطعوا الطريق ، وأفسدوا الزروع ، وقطعوا الثمار ، وحاصروا المدن ، فضاق بالناس الأمر ، وساءت أحوالهم ، وانقطعت أسفارهم ، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط، فحينئذ احتفل المعز ، وجمع عساكره ، فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها رجّالة ، وسار حتى حيل بينه وبين القيروان ثلاثة أيام وكانت عدة العرب، ثلاثة آلاف فارس « والصحيح أنهم كانوا على قدر جيش المعز على قول صاحب موسوعة المغرب العربى » فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك ، وعظم عليهم ، فقال لهم مؤنس بن يحيى : ما هذا يوم فرار ؟ فقالوا : أين نطعُنُ هؤلاء وقد لبسوا الكزاغندات والمغافر ؟ قال : فى أعينهم ، فسمى ذلك اليوم يوم العين ، والتحم القتال ، واشتدت الحرب ، فاتفقت صنهاجة على الهزيمة ، وترك المعز مع العبيد حتى يرى فعلهم ، ويقتل أكثرهم ، فعند ذلك يرجعون على العرب، فانهزمت صنهاجة وثبت العبيد مع المعز ، فكثر القتل فيهم ، فقتل ، منهم خلق كثير ، وأرادت صنهاجة الرجوع على العرب ، فلم يمكنهم ذلك ، واستمرت الهزيمة ، وقتل من صنهاجة أمة عظيمة ، ودخل المعز القيروان مهزوماً، على كثرة من معه وأخذ العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره [(١)] .

وقد وصفت كتب التاريخ هذه الواقعة بأبشع ما توصف به الحروب من فظاعة القتل وكثرة القتلى ، نتيجة لصمود كل من الجيشين للآخر فى سبيل دحر

---

(١) الكامل فى التاريخ (ج٦/ ١٥٣) .

خصمه والقضاء عليه ، وقال الشاعر العربى على بن رزق الرياحى أبياتاً فى هذه المعركة يصف فيها ما دار بينهم وبين المعز :

وإن ابن باديس لأحزم مالك ... ولكن لعمرى ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنا غلبت له ... ثلاثين ألفاً إن ذا لنكال (١)

ولما كان يوم النحر من هذه السنة ٤٤٢ هـ جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس ، وهجم على العرب على حين غرة وهم فى صلاة العيد ، فركبت العرب خيولهم وهجمت على جيوش المعز فهزمتهم وأثخنتهم قتلى ، ثم جمع المعز وخرج بنفسه فى صنهاجة وزناتة فى جمع كثير ، وهاجم العرب فى منازلهم ، واحتدم القتال وتبارز الشجعان فانكسرت شوكة صنهاجة وولت زناتة الأدبار ، وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يسمع بمثله وتناقلته الركبان ، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية وأحصى من قتل من رجال المعز فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة ، ثم أقبلت العرب حتى استقرت بمصلى القيروان ووقعت حروب طاحنة مع المعز قتل من المنصورية ورقادة خلق كثير ، فلما رأى ذلك المعز سمح لهم بدخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء ، فلما دخلوا استطالت عليهم العامة ، ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربى وآخر عامى ، وكانت الغلبة للعرب ، وفى سنة ٤٤٦ هـ أشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب (٢) .

بعد أن رتب أمور العاصمة الزيرية الجديدة ونقل لها كافة وظائف الدولة انتقل المعز إلى المهدية ٤٤٩ هـ فتلقاه ابنه تميم ومشى بين يديه واستولى العرب على القيروان وهدموا حصونها وقصورها وقطعوا الثمار ، وخربوا الأنهار ، وكانت الوقائع والمعارك والحروب التى خاضها المعز مع العرب درساً قاسياً له ، أقنعته بألا طاقة له بالعرب ، أيقن أن العبيديين مكروا به مكراً عظيماً وكان من أسباب

---

(١) تاريخ الفتح العربى ، ص (٢٩٩) .
(٢) الكامل فى التاريخ (ج٦ / ١٥٤) .

الهزائم المتلاحقة التى لحقت بالمعز قوة العرب وشجاعتهم ، وخذلان جنوده، من البرابرة الذين لا زالوا يعظمون الخلافة العبيدية حيث خذلوه فى أكثر من موقع، وتقريب المعز لعبيده مما أوغر نفوس صنهاجة وزناتة عليه .

وعندما استقر المعز فى المهدية فوض أمر الدولة وشؤون الحكم لابنه تميم الذى آنس فيه والده حسن التصرف وأصالة الرأى.

وبقى هذا المجاهد العظيم فى ضيافة ابنه إلى أن توفاه الله سنة ٤٥٣ هـ .

ويشهد التاريخ الإسلامى البربرى أن له الفضل بعد الله فى القضاء على عقائد الباطنية الإسماعيلية فى الشمال الإفريقى، وكان درعاً حصيناً لمنهج أهل السنة وقدمهم فى دولته وكلفه ذلك ثمناً باهظاً من قبل أعدائه.

كما يشهد التاريخ للمعز بن باديس وأتباعه من البرابرة أنهم تبنوا منهج أهل السنة والجماعة، وربطوا شمالهم الإفريقى بالخلافة الشرعية العباسية فى بغداد ويشهد التاريخ أن المعز أصبح علماً من أعلام المسلمين ورمزاً من رموزهم ودخل تاريخهم من أوسع أبوابه مسجلاً أعمالاً عظيمة ،ونرجو من الله أن تكون فى ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ذكر ابن الأثير فى أحداث سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وفاة المعز بن باديس وولاية ابن المعز فقال :« فى هذه السنة توفى المعز بن باديس، صاحب إفريقية، من مرض أصابه، وهو ضعف الكبد، وكانت مدة ملكه سبعاً وأربعين سنة، وكان عمره لما ملك إحدى عشرة سنة، وقيل: ثمانى سنوات وستة أشهر.

وكان رقيق القلب، خاشعاً، متجنباً لسفك الدماء إلا فى حد، حليماً، يتجاوز عن الذنوب العظام، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه، مكرماً لأهل العلم، كثير العطاء لهم، كريماً، وهب مرة ألف دينار للمستنصر الزناتى وكان عنده وقد جاء هذا المال، فاستكثره، فأمر به فأفرغ بين يديه، ثم وهبه له، فقيل له: لم أمرت بإخراجه من أوعيته؟ قال: لئلا يقال: لو رآه ما سمحت نفسه به، وكان له شعر حسن.

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، طاهر الزاوى، ص(٣٠٠).

ولما مات رثاه الشعراء، فمنهم أبو الحسن بن رشيق فقال:

لكل حى وإن طال المدى هُلُكُ ... لا عز مملكة يبقى، ولا ملك
ولى المعز على أعقابه فرمى ... أو كاد ينهدُّ من أركانه الفلك
مضى فقيداً وأبقى فى خزائنه ... هام الملوك، وما أدراك ما ملكوا
ما كان إلا حساماً سله قدر ... على الذين بغوا فى الأرض وانهمكوا
كأنه لم يخض للموت بحر وغى ... خضر البحار، إذا قيست به، برك
ولم يجُدْ بقناطير مقنطرة ... قد أرخت باسمه إبريزها السكك
روح المعز وروح الشمس قد قبضا ... فانظر بأى ضياء يصعد الفلك(١)

(١) تاريخ الفتح العربى، ص(٢١٤).

المبحث الخامس
أبناء وأحفاد المعز

أولاً : تميم بن المعز :

ولد بالمنصورية فى الثالث من رجب سنة ٤٢٢ هـ وولاه أبوه على المهدية سنة ٤٤٥ هـ ، ثم أسندت إليه ولاية إفريقية من والده المعز، وسار فى الناس بسيرة حسنة، وقرب أهل العلم وكان شجاع القلب، ذا همة عالية، وسياسة، ودهاء، استطاع أن يرجع المدن التى سلبت من والده، واستمال زعماء العرب بالمال والعطايا، وصاهرهم وامتزج معهم، وجعل منهم جنوداً لدولته بكياسة وفطانة وسياسة نادرة، واستطاع أن يضم مدينة سوسة فى عام ٤٥٥ هـ بعد أن قضى على منافسه حمو بن مليك، وعفا عن أهلها وحقن دماءهم بعد أن قضى على المقاومة المسلحة التى واجهته (١) .

وفى سنة ٤٥٧ هـ أراد الناصر بن علناس الحمادى زعيم الدولة الحمادية احتلال المهدية والقضاء على ملك تميم وجهز جيشه من صنهاجة وزناتة وبنى هلال، فاستدرج تميم بن المعز القبائل العربية للوقوف بجانبه، وأعطاهم السلاح والمال والعتاد، واستطاع أن يقضى على جيش الناصر، وقتل منهم ٢٤ ألفاً، وترك الغنائم والأموال للعرب التى استغنت بذلك، وقال تميم: يقبح بى أن آخذ سلب ابن عمى فأرضى العرب بذلك (٢) .

وفى سنة ٤٨٤ هـ ضم تميم مدينة قابس بعد أن تولى أمرها عمرو بن المعز، وكان قبل عمرو رجل يسمى قاضى بن إبراهيم بن بلمونة، وكان ضمه لقابس بالجيوش الجرارة فقال له أصحابه: يا مولانا لما كان فيها قاضى توانيت عنه وتركته، فلما وليها أخوك جردت إليه العساكر، فقال: لما كان فيها غلام من عبيدنا كان زواله سهلاً علينا، وأما اليوم وابن المعز بالمهدية، وابن المعز بقابس فهذا لا يمكن السكوت عليه.

---

(١) الكامل لابن الأثير (ج٦/ ٢٣٤) .

(٢) المرجع السابق نفسه (ج٢/ ٢٤٣) .

وفي فتحها يقول ابن خطيب سوسة القصيدة المشهورة التي أولها:

ضحك الزمان، وكان يلقى عابساً ... لما فتحت بحد سيفك قابسا
الله يعلم ما حويت ثمارها ... إلا وكان أبوك قبل الغارسا
من كان في زرق الأسنة خاطباً ... كانت له قلل البلاد عرائسا
فابشر تميم بن المعز بفتكة ... تركتك من أكناف قابس قابسا
ولّوا فكم تركوا هناك مصانعاً ... ومقاصراً ومخالداً، ومجالساً
فكأنها قلبٌ، وهن وساوسُ ... جاء اليقين، فذاد عنه وساوسا (١)

وفي سنة ٤٩٣ هـ استطاع تميم أن يضم مدينة صفاقس وأن ينتزعها بالقوة من حاكمها المتمرد حمو بن فلفل البرغواطي (٢).

ويعتبر عصر تميم أزهى من عصر والده فيما بعد دخول القبائل العربية.

وكان يضرب به المثل بالجود والشجاعة والكرم والعطاء، قال فيه ابن كثير: «من خيار الملوك حلماً وكرماً، وإحساناً، ملك ستا وأربعين سنة وعمر تسعاً وتسعين سنة، ترك من البنين أنهد من مائة، ومن البنات ستين بنتاً، وملك بعده ولده يحيى، ومن أحسن ما مدح به الأمير تميم قول الشاعر:

أصح وأعلى ما سمعناه في الندا ... من الخبر المروى منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كف الأمير تميم (٣)

وكان عالماً فاضلاً، وشاعراً رقيق العاطفة، ومن شعره:

فإما الملوك في شرف وعز ... على التاريخ في أعلى السرير
وإما الموت بين ظبا العوالي ... فلست بخالد أبد الدهور (٤)

---

(١) الكامل في التاريخ (ج٦ / ٣٦٧).
(٢) تاريخ الفتح العربي، ص (٣٠٢).
(٣) البداية والنهاية، (ج١٢ / ١٨١).
(٤) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص(٣٠٢).

وقال ابن الأثير: « كان شهماً شجاعاً، ذكياً وله معرفة حسنة، وكان حليماً، كثير العفو عن الجرائم العظيمة، وله شعر حسن، فمنه أنه وقعت حرب بين طائفتين من العرب، وهم عدى، ورياح، فقتل رجل من رياح، ثم اصطلحوا، وأهدروا دمه، وكان صلحهم مما يضر به وببلاده، فقال أبياتاً يحرض على الطلب بدمه، وهى:

متى كانت دماؤكم تُطَـــل	أما فيكم بثأر مستقـــل
أغانم ثم سالم إن فشلتـــم	فما كانت أوائلكم تُـذلُّ
ونمتم عن طلاب الثأر حتى	كأن العز فيكم مَضْمحلُّ
وما كسرتم فيـــه العـــوالى	ولا بيض تفل، ولا تُسَلُّ

فعمد أخوة المقتول فقتلوا أميراً من عدى، واشتد بينهم القاتل، وكثرت القتلى، حتى أخرجوا بنى عدى من إفريقية [١].

ومن أقواله التى صارت مثلاً فى إفريقية : « أسرار الملوك لا تذاع » [٢].

وانطوت صفحة حياته فى عام ٥٠١ هـ بعد أن عادت للدولة الزيرية هيبتها.

ثانياً: يحيى بن تميم بن المعز بن باديس:

عهد إليه أبوه بالولاية فى حياته فى السادس عشر من ذى الحجة سنة ٤٩٧هـ، واستقبل بالأمر يوم وفاة أبيه، وعمره ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر وعشرون يوما فكان موفقا [٣].

ولما استقر فى الملك جهز أسطولاً إلى جزيرة جربة، وسببها أن أهلها يقطعون الطريق ويأخذون التجار، فحاصرها وضيق عليها، فدخلوا تحت حكمه، والتزموا ترك الفساد، وضمنوا صلاح الطريق [٤].

---

(١) الكامل (ج٦/٤٨٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، ص (٣٠٣).

(٤) انظر: التذكار، ص(٣٩).

وكان مهتماً بعلم الأخبار وأيام الناس والطب وكان مغرماً بالكيمياء، وحاول ثلاثة من الباطنية قتله فدخلوا عليه زاعمين أن لهم دراية بالكيمياء إلا أن الله نجاه منهم.

قال الذهبي: « وقد وقف ليحيى ثلاثة غرباء، وزعموا أنهم يعلمون الكمياء فأحضرهم ليتفرج وأخلاهم، وعنده قائد عسكره إبراهيم، والشريف أبو الحسن، فسل أحدهم سكيناً، وضرب الملك، فما صنع شيئاً ورفسه الملك فدحرجه، ودخل مجلساً وأغلقه، وقتل الآخر الشريف، وشد إبراهيم بسيفه عليهم، ودخل المماليك، وقتلوا الثلاثة، وكانوا باطنية، أظن الآمر العُبيدى ندبهم لذلك »[1].

وكان كثير المطالعة محبا للجهاد فتح حصوناً ما قدر أبوه عليها، وكان رحيماً للضعفاء شفيقاً على الفقراء يطعمهم فى الشدائد فيرفق بهم، ويقرب أهل العلم والعقل من نفسه، وساس العرب فى بلاده فهابوه وانكفت أطماعهم، وكان له نظر حسن فى علم النجوم، وكان حسن الوجه على جانبيه شامة، أشهل العينين مائلاً فى قده إلى الطول، دقيق الساقين[2].

وكان عنده جماعة من الشعراء قصدوه ومدحوه، وخلدوا مديحه فى دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت بن عبد العزيز أمية بن أبى الصلت الشاعر الذى عاش فى كنفه بعد أن جاب البلدان، وله فى يحيى مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن، ومن جملة ما قاله من مديحه قصيدة:

فارغب بنفسك إلا عن ندى ووغى ... فالمجد أجمع بين البأس والجود
كدأب يحيى الذى أحييت مواهبه ... ميت الرجاء بإنجاز المواعيد
معطى الصوارم والهيف النواعم والـ ... ـجرد الصلادم والبزل الجلاعيد
أشم أشوس مضروب بسرادقه ... على أشم بفرع النجم معقود
إذا بدا بسرير الملك محتبياً ... رأيت يوسف فى محراب داود

---

(١) سير أعلام النبلاء، (ج١٩/ ٤١٤).

(٢) وفيات الأعيان، (ج٦/ ٢١٤).

إلى أن قال :

هذى موارد يحيى غير ناضبة ... وذا الطريق إليها غير مسدود
حكم سيوفك فيما أنت طالبه ... فالسيوف قضاء غير مردود [(١)]

وتوفى الأمير يحيى سنة ٥٠٩ هـ متأثراً بمرض أصحابه بعد الاعتداء عليه من قبل الباطنيين الذين حاولوا قتله ولازمه المرض إلى أن توفى [(٢)] وقال ابن الأثير: كانت وفاته يوم عيد الأضحى فجأة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوماً، وكانت ولايته ثمانى سنين وخمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وخلف ثلاثين ولداً، فقال عبد الجبار بن محمد حمديس الصلقى يرثيه ويهنئ ابنه عليا بالملك.

فقال :

ما أغمد الغضب إلا جرد الذكر ... ولا اختفى قمر حتى بدا قمر
بموت يحيى أميت الناس كلهم ... حتى إذا ما علىٌ جاءهم نشروا
إن يبعثوا بسرور من تملكه ... وعينها من أبيه دمعها همر
شقت جيوب المعالى بالأسى فبكت ... فى كل أفق عليه الأنجم الزهر
وقل لابن تميم حزن مادهما ... فكل حزن عظيم فيه محتقر
قام الدليل ويحيى لا حياة له ... إن المنية لا تبقى ولا تذر [(٣)]

ثالثاً : الأمير على بن يحيى بن تميم بن المعز :

ولد يوم ١٥ من صفر سنة ٤٩٩ هـ وولاه والده على صفاقس وتولى الحكم بعد وفاة والده.

وبعد عامين من حكمه جهز على أسطولاً فى البحر وأرسله إلى مدينة قابس وضرب عليها حصاراً، وذكر ابن الأثير السبب فى ذلك فقال :« وسبب ذلك أن

---

(١) وفيات الأعيان (ج٦/ ٢١٥).

(٢) ابن عذارى (ج١/ ٣٠٦).

(٣) الكامل (ج٦/ ٥٢٤).

صاحبها رافع بن مكن الدهمانى أنشأ مركباً بساحلها ليحمل التجار فى البحر، وكان ذلك آخر أيام الأمير يحيى، فلم ينكر يحيى ذلك، جرياً على عادته فى المداراة، فلما ولى علىّ الأمر، بعد أبيه، أنف من ذلك وقال: لا يكون لأحد من أهل إفريقية أن يناوئنى فى إجراء المراكب فى البحر بالتجار، فلما خاف رافع أن يمنعه علىّ التجأ إلى اللعين رجار أن ينصره ويعينه على إجراء مركبه فى البحر، وأنفذ فى الحال أسطولاً إلى قابس، فاجتازوا بالمهدية، فحينئذ تحقق علىّ اتفاقهما، وكان يكذبه.

فلما جاز أسطول رجار بالمهدية أخرج علىّ أسطوله فى أثره، فوصل إلى قابس، فلما رأى صاحب أسطول الفرنج المسلمين لم يخرج مركبه، فعاد أسطول الفرنج، وبقى أسطول علىّ يحصر رافعاً بقابس مضيقاً عليه، ثم عادوا إلى المهدية » (١).

وبعد ذلك أراد رافع أن يحاصر المهدية وجمع شتات الأعراب وجهز جنوداً وزعم أنه يريد الدخول فى طاعة الأمير علىّ إلا أن الأمير لم تنطل عليه الحيلة وحاربه وكسر شوكة رفاع حتى تدخل بعض الأعيان من العرب وغيرهم للصلح بين الطرفين (٢).

وشعر الأمير علىّ بن يحيى بخطورة زعيم صقلية « رجار » عليه فأصدر أوامره لتجديد الأسطول وإعداد العدة لدحر قوات رجار البحرية، وكاتب المرابطين بمراكش فى الاجتماع معهم على الدخول إلى صقلية، فكف رجار عن شره (٣) وتوفى الأمير على بن يحيى بن تميم، صاحب إفريقية، فى العشر الأخير من ربيع الآخر، وكانت حروبه وأعماله تدل على همته، ولما توفى ولى الملك بعده ابنه الحسن، بعهد أبيه، وقام بأمر دولته صندل الخصى؛ لأنه كان عمره حينئذ اثنتى عشرة سنة لا يستطيع أن يستقل بتدبير الملك، فقام صندل بالأمر خير قيام، فلم تطل أيامه حتى توفى، فوقع الخلاف بين أصحابه وقواده، كل منهم يقول أنا المقدم على الجميع، وبيدى الحال والعقد، فلم يزالوا كذلك إلى أن فوض أمور

---

(١) الكامل (ج٦/ ٥٢٤).

(٢، ٣) المصدر السابق (ج٦/ ٥٢٤).

دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له: أبو عزيز موفق، فصلحت الأمور [١].

رابعاً: الأمير الحسن بن على بن يحيى بن تميم:

ولد بسوسة سنة ٥٠٢ هـ، وتولى بعد وفاة أبيه وجرت فى أيامه وقائع وأمور يطول شرحها، وضعفت دولته وأصبحت هدفاً للنصارى الحاقدين، ورأوا أن الفرصة حانت لاحتلال مدن جنوب البحر المتوسط وإذلال المسلمين، واستطاع رجار الصقلى احتلال طرابلس وبعدها المهدية.

وخرج الحسن بن على من المهدية وهو يقول: « سلامة المسلمين أحب إلى من الملك والقصر ».

وأراد الذهاب إلى العبيديين فى مصر ثم تنحى عن هذه الفكرة وراسل ابن عمه زعيم الدولة الحمادية فى المغرب الأوسط إلا أن ابن عمه حبسه فى إقامة جبرية خوفاً من أن يتصل بخليفة الموحدين عبد المؤمن بن على، واستطاع الحسن ابن على أن يتصل بخليفة الموحدين ودخل تحت سلطانه وعملا على تحرير أراضى المسلمين والمدن الساحلية من كل وجود للنصارى راضياً بخلافة الموحدين، وتضاربت الأقوال فى سنة وفاته إلا أنه بالتأكيد كانت بعد سنة ٥٥٥ هـ أثناء ذهابه لعاصمة الموحدين حيث عاجلته المنية وهو فى شد الرحال إليها.

وبسقوط المهدية فى قبضة النصارى الحاقدين بقيادة رجار الصقلى سنة ٥٤٣هـ انتهت دولة بنى زيرى بعد أن دام ملكها على أرض إفريقية والمغرب الأوسط نحو مائة وثمانين عاماً (١٨٠ سنة) منذ زمن مؤسسها الأول بلكين ٣٦٢ هـ إلى الحسن بن على عام ٥٤٣ هـ وقبل الدخول فى أسباب سقوط الدولة الزيرية خصوصاً والدولة العبيدية عموماً نبين ما حدث لطرابلس الغرب من هجوم شرس غادر من قبل النصارى وما مر من أحداث فى تلك الفترة.

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربى (ج ٤ / ٨٢ ، ٨٣).

أ-والى طرابلس فى زمن الأمير الحسن بن على الصنهاجى:

وهو محمد بن خزرون بن خليفة بن ورو.. ولى طرابلس بعد شاه ملك وقرب منه شيوخ بنى مطروح لما لهم من الزعامة والرئاسة والمكانة والنفوذ فى طرابلس، وأسند إليهم رئاسة الجند وتدبير الأمور وأصبح لا يصدر إلا عن رأيهم وخلع يد الطاعة من الحسن بن على، وامتنعوا عن دفع الأموال إليه وأعلنوا طاعتهم للعبيديين فى مصر.

ب-رجار يهاجم طرابلس:

وفى سنة ٥٣٧ هـ هاجم رجار طرابلس وحاصرها بأسطوله ونقبوا أسوار المدينة فدافع أهلها عنها دفاعاً مستميتاً واستنجدوا بسكان النواحى من العرب وغيرهم فأنجدوهم، ولم يتمكن رجار من دخول المدينة فرجع إلى صقلية خائباً، وغنم الطرابلسيون منه بعض الأسلحة، وبقى ابن خزرون مستقلاً بطرابلس يدبر ويرتب وينظم شؤونها ويدين بالطاعة للعبيديين فى مصر (١).

جـ-المجاعة فى طرابلس:

فى سنة ٥٤٠ هـ تعرضت طرابلس لمجاعة كبيرة فاضطر بعض السكان إلى ترك البلاد والجلاء عنها، وكان محمد بن خزرون عنيفاً شديداً على سكان البلاد قاسياً فى حكمه ضايق الناس فى معيشتهم فضاقوا به ذرعاً وهو لا يزداد إلا تعسفاً.

وكان بنو مطروح فى مقدمة وجهاء طرابلس ومن زعمائها وكانوا معينين لمحمد بن خزرون، ولكنهم نقموا عليه أعماله وحاولوا أن يخففوا من وطأته فجمعوا الناس وخرجوا عليه وأبعدوه هو وشيعته من المدينة وكان رجار حاكم صقلية يتابع هذا التنازع، فاستغل الظروف، واستفاد من وقوع كارثة المجاعة وثورة السكان على ابن خزرون وطرده من المدينة، فأراد الانتقام لهزيمته الأولى فأرسل جيوشه وأساطيله وهاجم بهم طرابلس فدخلها بدون مقاومة واحتلها بدون متاعب عام ٥٤١ هـ.

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، ص(٣٠٥).

وبانتهاء محمد بن خزرون انتهى حكم بنى خزرون فى طرابلس.

وأصبح قائد أسطول رجار « جرجى بن مخائيل الأنطاكى » الذى تعلم فى الشام ورافق تميم بن المعز حاكماً على طرابلس وطلب منهم الأمان فأمنهم، وشرط لهم ألا يلزمهم بما يخالف دينهم.

وهذه هى المرة الأولى التى يستولى فيها النصارى الحاقدين على طرابلس، أما المحاولة التى كانت سنة ٥٣٧ هـ فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها [١].

. وحاول رجار أن يسيطر على أهل طرابلس بأهلها فأسند لهم رجار ولاية طرابلس، وعين يوسف بن زيرى قاضياً، وكنيته أبو الحجاج، وحكم رافع بن مطروح اثنتى عشرة سنة وهو يدين لرجار بالطاعة.

وفى تصورى أن رضاه بالعمل تحت راية النصارى مضطراً إليها اضطراراً خارجاً عن إرادته، واجتهد الشيخ فى تقليل المضار ودفع عن المسلمين ما أمكنه من ضرر مع انقياده لرجار فى صقلية.

ولما هلك رجار سنة ٥٤٨ هـ بعد أن ملك ما بين المهدية وطرابلس ما عدا قابس خلفه فى الحكم ابنه غاليالم وسمى نفسه رجار الثانى، فقويت شوكته فى الشمال الإفريقى، ودخلت قابس فى طاعته، وكان شديد الوطأة على المسلمين، فملوا حكمه، وسئمت نفوسهم تحت حكمه وتشجعوا مع ظهور دعوة الموحدين فى إفريقية وقربهم من المهدية.

وبدأت الثورة المسلحة ضد غاليالم فى صفاقس، وانتشرت فى البلاد الساحلية، ووصلت إلى نواحى طرابلس، وقد خاف غاليالم أن يتصل الطرابلسيون بالثورة فأحدث فتنة بين الأهالى لتلهيهم عن التفكير فى الثورة، وعن الاتصال بالموحدين وطلب من أهالى طرابلس أن يشتموا الموحدين، فامتنع أهل طرابلس ولجئوا إلى القاضى أبى الحجاج، وكلفوه بأن يفهم غاليالم بأن طلبه هذا يخالف الدين وتمكن القاضى من إقناعه فإعفائهم من طعن الموحدين وشتمهم.

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، ص(٣٠٧).

ودفعت معاملة غاليالم ـ الطرابلسيين للثورة ضده بسبب ظلمه وتعسفه فقاد رافع ابن مطروح الثورة ضده وتحررت طرابلس عام ٥٥٣ هـ من حكم النصارى، وأصبح رافع بن مطروح حاكماً على طرابلس لما له من جاه ومكانة عند أهل طرابلس، ومع امتداد دعوة الموحدين في الشمال الإفريقي دخلت طرابلس في طاعة عبد المؤمنين بن على زعيم الموحدين، وكان ذلك في عام الخامس سنة٥٥٥هـ [١].

﴿﴾﴿﴾

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، ص(٣٠٧).

المبحث السادس
أسباب سقوط الدولة الزيرية فى الشمال الإفريقى

١ - عجز الدولة الزيرية على توحيد الشمال الإفريقى كله، لظهور بعض القبائل المناهضة للصنهاجيين مثل قبائل زناتة التى تحالف مع الدولة الأموية فى الأندلس.

٢ - الانقسام الداخلى الذى حدث للعائلة الزيرية وترتب على ذلك ظهور الدولة الحمادية فى المغرب الأوسط.

٣ - الصراع المسلح الذى استمر عشرات السنين بين الصنهاجيين والزناتيين والكتاميين مما أضعف الدولة أمام التحديات الخارجية.

٤ - المكر الباطنى بالدولة الزيرية وتمثل ذلك فى محاولة اغتيال سلاطينهم وإرسال قبائل بنى هلال وبنى سليم للانتقام من المعز بن باديس سلطان الدولة الزيرية فى زمانه.

٥ - انفصال بعض المدن عن عاصمة الدولة الزيرية بسبب الزحف العربى المدعوم بالحقد الباطنى ومحاولة سلاطين الدولة الزيرية إرجاع هذه المدن المنفصلة مما كلف الدولة الزيرية جهداً ووقتاً ودماءً وأرواحاً من أجل إرجاع تونس وتخليصها من بنى خراسان وصفاقس وتخليصها من البراغواطى وفاس وتخليصها من بنى جامع.

٦ - الغزو الصليبى القادم من وراء البحر الأبيض المتوسط، وصراع الدولة الزيرية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا، بدأ ذلك الغزو النصرانى الحاقد بعد أن استولت قوات النورمان على جريزة صقلية ٤٨٤ هـ فاحتلوا جزيرة جربة عام ٥٢٩ هـ، وبسطوا سلطانهم على طرابلس عام ٥٣٧هـ، ثم عادوا واحتلوها عام ٥٤١ هـ، وزحفوا على فاس ٥٤٢ هـ، وأنهكت الصراعات الداخلية التى حدثت بين العرب وزناته وبنى حماد قوة الدولة الزيرية مما جعل

الحملات الصليبية تستسهل مهمتها فى القضاء على الدولة الصنهاجية الزيرية، وتم لها ذلك بسقوط المهدية عام ٥٤٣ هـ .

٧ - هجرة العلماء والفقهاء من القيروان والمهدية إلى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

٨ - تعرضت التجارة والصناعة والزراعة لهزات عنيفة نتيجة الاضطرابات والصراعات الداخلية مما جعل الناس تهاجر إلى الأندلس وصقلية والمشرق الإسلامى .

حكام بنى زيرى فى القيروان والمهدية

١ ـ بلكين بن زيرى بن مناد بن منقوش الصنهاجى ٣٦٢ ـ ٣٧٤ هـ، ٩٧٣ ـ ٩٨٤ م.
٢ ـ المنصور بن بلكين بن زيرى ٣٧٤ ـ ٣٨٦ هـ، ٩٨٤ ـ ٩٩٦ م.
٣ ـ باديس بن المنصور بن بلكين ٣٨٦ ـ ٤٠٦ هـ، ٩٩٦ ـ ١٠١٥ م.
٤ ـ المعز بن باديس بن منصور ٤٠٦ ـ ٤٥٣ هـ، ١٠١٥ ـ ١٠٦٢ م.
٥ ـ تميم بن المعز بن باديس ٤٥٣ ـ ٥٠١ هـ، ١٠٦٢ ـ ١١٠٧ م.
٦ ـ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ٥٠١ ـ ٥٠٩ هـ، ١١٠٧ ـ ١١١٦ م.
٧ ـ على بن يحيى بن تميم ٥٠٩ ـ ٥١٥ هـ، ١١١٦ ـ ١١٢١ م.
٨ ـ الحسن بن على بن يحيى ٥١٥ ـ ٥٤٣ هـ، ١١٢١ ـ ١١٤٨ م.



الفصل الرابع

سقوط
الدولة العُبيدية

الفصل الرابع
سقوط الدولة العُبيدية

المبحث الأول
من أسباب سقوط الدولة العبيدية
وانحدار المد الباطني والتغلغل النصراني الصليبي

١- مقاومة المغاربة الباسلة للمد العبيدى الباطنى بقيادة العلماء والفقهاء والمحدثين مما جعل زعماء الدولة العبيدية يقررون نقل.ملكهم وزعامتهم إلى مصر.

٢- ظهور القائد الإسلامى الغربى البربرى المعز بن باديس الذى أعلن انفصاله السياسى و العسكرى والعقدى عن الدولة العبيدية فى مصر.

٣- صراع الدولة العبيدية مع القرامطة فى الشام من أجل الأطماع الدنيوية الأرضية.

٤- استعانة العبيديين بالنصارى الأوربيين للوقوف ضد تقدم السلاجقة فى بلاد الشام، ثم غدر النصارى بالعبيديين بعد مجيئهم وخذلانهم للدولة العبيدية فى مصر.

٥- رفض المصريين للمذهب العبيدى الباطنى والعمل الجاد من قبل العلماءوالفقهاء وأبناء الشعب المصرى فى نخر الدولة العبيدية الباطنية.

٦- رجوع الدولة العباسية إلى التمسك بالكتاب والسنة والدعوة إليها، وكانت من أوائل بدايات الرجوع ما قام به الخليفة القادر بالله عام ٤٠٨ هـ حيث استتاب فقهاء المعتزلة فأظهروا الرجوع وتبرؤوا من الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام[١].

وامتثل السلطان محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين فى ذلك واستن

---

(١) الكامل (ج٩/ ٣٠٥).

بسنته فى عقوبة المعتزلة والرافضة والإسماعيلية، وأبعد جميع طوائف أهل البدع ونفاهم عن ديارهم كما أحرق كتب الفلسفة(١) وحسر المجاهد محمود الغزنوى المد الباطنى الرافضى الإسماعيلى فى بلاد الهند وبلاد أفغانستان.

قال فيه ابن كثير فى ترجمته: « الملك الكبير، المجاهد الغازى أبو القاسم صاحب بلاد غزنة وما والاها، فتح فتوحات كثيرة فى بلاد الهند، لم يتفق لغيره من الملوك لا قبله ولا بعده، وغنم مغانم كثيرة، وكان مع هذا فى غاية الديانة وكراهة المعاصى وأهلها، كان يحب العلماء و المحدثين، ويحب أهل الخير والدين»(٢).

وعندما حاول العبيديون فى مصر إغراءه بالهدايا كى يقيم الدعاية لهم فى بلاده، أحرق كتبهم وهداياهم(٣)، وقتل التاهرتى «مندوبهم للدعوة، وأهدى بغلته إلى القاضى أبى منصور محمد الأزدى، وقال: كان يركبها رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين(٤) واستطاع هذا الملك السنى الميمون أن يكسر شوكة الإسماعيلية والمبتدعة فى بلاده فجزاه الله خيراً وتوفى هذا الملك المجاهد عام ٤٢١هـ ،واستمرت دولته فى غزنة فترة طويلة، وكان حفيده مثله فى سيرته الميمونة، واستمر الغزنويون يحكمون الهند بمذهب أهل السنة إلى القرن الثالث عشر الهجرى حين تحكم الإنجليز ونقلوا السلطة إلى الهنادكة بعد رحيلهم(٥).

٧ـ ظهر السلاجقة السنيون فى بلاد خراسان وامتد نفوذهم إلى عاصمة الخلافة واستطاعوا أن يقضوا على البويهيين عام ٤٤٨هـ ، وبذلك سقطت دولة البويهيين الشيعية وقضى السلاجقة على فتنة البساسيرى الشرير، وفى عام ٤٤٨هـ أزيل ما كان على أبواب المساجد من سب الصحابة، وأمر رئيس الرؤساء بقتل شيخ الروافض أبى عبد الله الجلاب لغلوه فى الرفض(٦).

(١ ، ٢) البداية والنهاية (ج١٢/ ٢٨ ، ٣٢).

(٣) انظر البداية والنهاية (ج ١٢/ ٣٢ ، ٤٣ ، و أيعيد التاريخ نفسه؟ ص(٦٦ ، ٦٨) والروضتين ص(٣١).

(٤ ، ٥) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (٦٦).

(٦) البداية والنهاية (ج١٢/ ٤٣).

وفى عهد ألب أرسلان زعيم السلاجقة عاد للأمة عزها المفقود، ورجعت لهم الانتصارات الكبيرة على النصارى، وعمل ألب أرسلان على تخليص حلب وديار الشام من الهيمنة العبيدية و إرجاعها للخلافة العباسية وفى عام ٤٦٢ هـ رجعت مكة إلى السيادة العباسية، وانخلعت من التبعية العبيدية، وأعطى السلطان ألب أرسلان لمحمد بن أبى هاشم حاكم مكة ثلاثين ألف دينار(١) .

وفى زمن وزارة نظام الملك «الحسن بن على» اهتمت الدولة السلجوقية بتولية الأمور القيادية فى الدولة للقواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة، ونشروا علوم أهل السنة، قال المؤرخ أبو شامة : « فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لا سيما فى وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها»(٢) .

وهذا الوزير الصالح «نظام الملك » «الحسن بن على» هو الذى شجع بناء المدارس للطلبة ، ففى عام ٤٥٩هـ فرغ من عمارة المدرسة النظامية فى بغداد، وأسس المدارس فى نيسابور وغيرها من البلدان، وقد سرى هذا الاتجاه فى بناء المدارس السنية إلى مصر، وهى تحت النفوذ العبيدى الباطنى «فقد أنشأ أبو الحسن على بن السلار وزير الظافر سنة ٥٤٤هـ مدرسة وجعل رياستها للحافظ السلفى، وكانت المدرسة الوحيدة للشافعية فى الإسكندرية، كما أنشئت المدرسة العوفية ٥٣٢ هـ وعلى رأسها الفقيه المالكى ابن الطاهر بن عوف، ومن أغراض هاتين المدرستين الوقوف فى وجه المذهب الشيعى والدعوة للمذهب السنى»(٣) .

قال المؤرخ أبو شامة عن نظام الملك : «كان عالماً فقيهاً ديناً خيراً متواضعاً عادلاً ، يحب أهل الدين ، وأما صدقاته وأوقافه فلا حد لها ، ومدارسه فى العالم مشهورة لم تخل بلد منها ، حتى جزيرة ابن عمرو التى هى فى زاوية من الأرض بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وكان يحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه ؟ ص (٦٨) .

(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين (٣١) .

(٣) أيعيد التاريخ نفسه ؟ ص (٦٩) .

يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة »[١] قتل - رحمه الله - بيدى الغدر والخيانة الباطنية قرب نهاوند فى اليوم العاشر من رمضان عام ٤٨٥هـ[٢] .

٨ - نشط علماء المدرسة الشافعية وعلى رأسهم الإمام الجوينى أبو المعالى إمام الحرمين الذى اهتم بمشاكل عصره وكتب كتابه المعروف «غياث الأمم فى التياث الظلم » فى السياسة الشرعية التى تبحث فى مشكلات المسلمين الواقعية، ومن تلاميذ الإمام الجوينى النابغين: أبو حامد الغزالى والكيا الهراسى، وقد ألف الغزالى كتابه «إحياء علوم الدين» وفى نيته أن هذا من أسباب إصلاح أحوال المسلمين، ولكن يؤخذ على الكتاب حشوه بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والقصص غير المعقولة من شطحات الصوفية، والكلام الفاسد من الفلاسفة، ومع ذلك ففى كتابه نظرات إصلاحية من خلال إصلاح النوايا والقلوب، وكانت بحوث الغزالى فى النفوس البشرية عميقة أثرت تأثيراً كبيراً فى واقع المسلمين[٣] .

وكان قبل الإمام الجوينى الإمام الماوردى الذى حاول أن يمهد الطريق لإمام الحرمين فكتب(الأحكام السلطانية) لمعالجة مشكلة الحكم وكتب(أدب الدنيا والدين) لمعالجة مشكلة دقيقة فى حياة المسلمين وهى: كيف نجمع بين الدين والدنيا فى توازن شرعى؟ .

إن علماء المدرسة الشافعية السنية من أمثال أبى إسحاق الشيرازى وتلاميذهم ساهموا فى اندحار الرفض والمذاهب الباطنية[٤] .

٩- ظهور العلماء العاملين المخلصين المنتسبين للمرسة الحنبلية فى مدارس بغداد الذين تربى علماءالأمة، وطلاب العلم على أيديهم كالشيخ أبى الوفاء بن عقيل، والشيخ أبى الفرج ابن الجوزى الإمام الحافظ الواعظ وكان لهم تأثير فى رجوع

---

(١) الروضتين فى أخبار الدولتين (ج١ / ٥) .

(٢) البداية والنهاية (ج١٢ / ١٥٠) .

(٣) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (٧٠-٧٣) .

(٤) المصر السابق.

الناس إلى الدين على أصول سنية، وكان لمدرسة أبى سعيد المخرمى الحنبلى دور بارز فى تعليم الأمة وتربيتها وخصوصاً بعد أن تولى أمرها العالم الربانى عبد القادر الجيلانى، فكان كبار علماء بلاد الشام يرحلون إلى بغداد لدراسة الفقه الحنبلى وللاتصال بهذه المدرسة التربوية الفقهية العقدية، وممن تربوا فى هذه المدرسة الحافظ عبد الغنى المقدسى الذى دخل بغداد سنة ٥٦٠ هـ مع الموفق ابن قدامة وأكرمهم الشيخ عبد القادر الجيلانى غاية الإكرام (١).

وهؤلاء المقادسة أبو عمر وأخوه الموفق، وابن خالهم عبد الغنى والشيخ العماد كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الإفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس (٢)،وكان لهؤلاء العلماء تأثير عظيم فى نفوس المسلمين ودفعهم نحو الجهاد والاستشهاد فى سبيل العقيدة ومحاربة العقائد الباطنية الإلحادية العبيدية الإسماعيلية وكشف مخططاتهم وأساليبهم الماكرة.

وكان الواعظ الفقيه الحنبلى الدمشقى على بن إبراهيم بن نجا، من تلاميذ المدرسة الحنبلية فى بغداد، وانضم إلى صلاح الدين، وأصبحت له حظوة عنده، وهو الذى ساعد صلاح الدين فى كشف مؤامرة عبيدية انتقامية للقضاء على أهل السنة فى مصر وإرجاع الدولة العبيدية (٣).

وفرح الناس ببلاد الشام بعودة السنة، قال أبو المظفر الجوزى: «كان الشيخ العماد يحضر مجلسى دائماً ويقول صلاح الدين: يوسف فتح الساحل، وأظهرالإسلام وأنت يوسف أحييت السنة بالشام» (٤).

وكان العماد المقدسى رحمه الله يجلس من الفجر إلى بعد العشاء يعلم الناس القرآن والأحكام ويشرح لهم الإسلام، لقد ساهمت مدرسة الحنابلة السنية فى محاربة الجهل، ودحر الرفض، وإحياء السنة، وإذكاء جذوة الجهاد فى نفوس المسلمين.

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص(٧٠-٧٣). (٢، ٣) المصدر السابق.
(٤) سير أعلام النبلاء (ج٢٢ / ٥٠).

١٠ـ الحملات المتتابعة التى قام بها حكام السلاجقة لاقتلاع جذور الباطنية وإليك ما قام به هؤلاء الأمراء من خدمة جليلة للعالم الإسلامى.

ففى سنة ٤٣٦هـ قام سلطان بلاد ما وراء النهر بغراخان بحملة مباركة للقضاء على طائفة الإسماعيلية، وبدأ بالقضاء على من دخل بلاده من دعاة العبيديين الذين أرسلتهم الخلافة العبيدية فى مصر، فقتلهم كلهم وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها، وسلمت تلك البلاد منهم[١] بقتل الباطنية، فقام أهل أصبهان بقتل من عندهم يقودهم فى ذلك الفقيه الشافعى السنى مسعود بن محمد الخجندى.

وفى سنة ٥٠٠هـ قتل السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى مقتلة عظيمة منهم، وأجلاهم عن قلعة أصبهان بعد حصارها وبعد مخادعة ومخاتلة منهم، وقتل صاحبها ابن غطاش[٢].

وفى سنة ٥٢٣هـ حاول الإسماعيلية تسليم دمشق للصليبيين مقابل أن يسلمهم الصليبيون مدينة صور واكتشف أمير دمشق هذه المؤامرة الشنيعة «بورى ابن طغتكين» فقتل متولى الإسماعيلية المزوقانى ونادى فى البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف وكان ذلك فى شهر رمضان[٣].

وفى حوادث سنة ٥١١ هـ قال ابن الأثير: علم السلطان محمد «السلجوقى» أن مصالح العباد والبلاد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم وكان فى أيامه المقدم عليهم والقيم بأمرهم الحسن بن الصباح الرازى صاحب قلعة «ألموت» وكانت أيامه قد طالت، فقد ملك القلعة ما يقارب ستًّا وعشرين سنة وكان المجاورون له فى أقبح صورة من كثرة غزاته لهم وقتله رجالهم، فسير السلطان له العساكر بقيادة أنوشتكين، فملك عدة قلاع منهم، ثم سار إلى

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (٧٥,٧٤).

(٢) الكامل (ج ١٠/ ٤٣٠).

(٣) محمد كرد على، خطط الشام (ج٢/ ٣) نقلاً عن كتاب أيعيد التاريخ نفسه؟.

قلعة« ألموت »وحاصرهم أشهراً وهم يراوغون لأخذ الأمان وترك القلعة، واستمر هذا القائد فى حصارهم، ثم جاء الخبر بوفاة السلطان محمد فتفرق عنه العساكر ولم تفتح القلعة [١] وفى عهد السلطان سنجر (٥٢١هـ)أوقع بالباطنية فى « قلعة ألموت » وقتل منهم خلقًا كثيراً.

إن محو آثار هؤلاء المجرمين أثخنت الدولة العبيدية وساهم فى إضعاف المد الباطنى فى العالم الإسلامى وانحساره.

إن أعمال السلاجقة فى تتبع آثار الباطنية لا يستطيع أحد أن يجزيهم عن أعمالهم الجليلة التى خدمت الأمة الإسلامية إلا الكريم المنان الرازق الفتاح الغفور الرحيم.

١١- ظهور أمراء ربانيين أصحاب ديانة وتقوى ودراية بالحروب وحب للشهادة، وأخص بالذكر الأمير الربانى والقائد الميدانى الذى بدأ بجهاد الصليبيين وأعاد الثقة إلى نفوس المسلمين، ووحدمدن الجزيرة والموصل، وبدأ فى الزحف على النصارى ينتزع منهم ما أخذوا من الحصون والمدن بقوة الإيمان ومضى الفرسان « الأمير عماد الدين زنكى » الذى استطاع تخليص حلب من يد النصارى فى عام ٥٢٢هـ وفى سنة ٥٣٢هـ جاء الروم بجيش عظيم ومعهم الفرنجة فتحالف عماد الدين زنكى مع سلطان ابن منقذ الكنانى حتى ردوا النصارى على أعقابهم خاسرين.

وفى سنة ٥٣٤هـ جهز زنكى حملاته على الإفرنج، وصبر المسلمون صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهدير « القادسية » ونصر الله المسلمين وهرب ملوك الإفرنج.

وكانت من أعظم أعماله فتح « الرها »فى سنة ٥٣٩هـ وعادت هذه المدينة إلى حكم الإسلام وهى من أشرف المدن عند النصارى، وسقطت بعدها الحصون القريبة وأخلى ديار الجزيرة من حكم الفرنج وشرهم.

ولم يستطع زنكى إتمام هذه المرحلة، فقد قتل وهو يحاصر قلعة« جعبر » التى

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (٧٥، ٨١).

تقع على نهر الفرات فى إقليم الجزيرة، وكان رحمه الله من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، وكان شجاعاً مقداماً حازماً مدحته الشعراء فى أعماله، وتوفى عام ٥٤١هـ مقتولاً.

ومما مدحه من الشعراء فى أعماله ما قام به الأمير زنكى فى رد ملك الروم عندما زحف على شيزر.

حيث قال المسلم بن خضر بن قسيم الحمورى من قصية أولها:

بعـزمك أيهـا الملك العظيم ... تذل لك الصعـاب وتستقيم

ومنها:

ألم تر أن كلب الروم لما ... تبين أنه الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلاً ... كأن الجحفل الليلُ البهيمُ
وقد نزل الزمان على رضاه ... ودان لخطبه الخطب العظيم
فحين رميته بك فى خميس ... تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر فى المفاضة منك جيشاً ... فأحرب لا يسير ولا يقيم
كأنك فى العجاج شهاب نور ... توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاءمُهجته فولى ... وليس سوى الحمام له حميم[1]

---

(١) الكامل (ج٧/ ٢١، ٢٢).

المبحث الثانى
نـــور الديـــن محمـــود

تولى أمور الدولة الزنكية بعد وفاة عماد الدين زنكى ابنه نور الدين، الذى نشأ مع والده فى العراق ثم الموصل وبلاد الشام. وبعد وفاة والده قام مقامه وأظهر السنة فى حلب وغير البدعة وقمع الرافضة، وبنى المدارس وأوقف الأوقاف وأظهر العدل، وكان كثير المطالعة للكتب الدينية متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات فى الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، عفيف البطن والفرج، مقتصداً فى الإنفاق، متحرياً فى المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش(١)، قال عنه ابن الأثير: «طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة منه»(٢).

ومن زهده وتقواه أنه كان لا يأكل ولا يلبس إلا من ملك كان له اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، وقد شكت إليه زوجته الضائقة وزيادة النفقة فاحمر وجهه وقال: «من أين أعطيها ما يكفيها والله لا أخوض نار جهنم فى هواها، ثم قال: لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً، وقد وهبتها إياها فلتأخذها»(٣).

وقال ابن الأثير: «وكان يصلى كثيراً من الليل ويدعو ويستغفر ولا يزال كذلك إلى أن يركب».

جمع الشجاعة والخشوع لربه ... ما أحسن المحراب فى المحراب(٤)

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبى حنيفة، وليس عنده تعصب، بل الإنصاف سجيته فى كل شىء، وعلى الحقيقة فهو الذى جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس، فإنهم كانوا قبل

---

(١) الروضتين فى أخبار الدولتين (ج١/ ٥).
(٢-٤) الكامل (ج٧/ ٢٤٢).

ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة، فلم يترك فى بلاده ضريبة ولا مكساً ولا غشاً، بل منعها رحمه الله جميعاً فى بلاد الشام والجزيرة ومصر(١).

ومن عدله أنه بنى داراً للعدل، وكان سبب بنائها أن أمراءه وقواد جيوشه تعدوا على من يجاورهم، فكثرت الشكاوى إلى القاضى كمال الدين، فأنصف بعضهم ولم يتجرأ على القائد أسد الدين شيركوه، فلما سمع نور الدين بذلك بنى هذه الدار وأحسن أسد الدين بهذا فقال لنوابه: «والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة فأرضوه وافصلوا الحال معه، فقالوا: إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتطون فى الطلب، فقال: خروج أملاكى عن يدى أسهل علىَّ من أن يرانى نور الدين بعين ظالم، وكان نور الدين يجلس فى هذه الدار يومين فى الأسبوع، فلما علم ما حصل مع أسد الدين شيركوه سجد لله شكراً.

وكان فعاله فى بلاد الإسلام من المصالح كثيرة، فقد بنى أسوار مدن الشام جميعها وأحكم بناءها، وبنى المدارس بحلب وحماة ودمشق وكان أهل الدين عنده فى أعلى محل. وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، فقد ذكر أحد الأمراء الشيخ قطب الدين النيسابورى أمام نور الدين فقال له السلطان: يا هذا الذى تتكلم عليه فله حسنة تغفر كل زلة وهى العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، وأنا أحمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسناته، على أننى والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت وذكرته بسوء لأؤدبنك»(٢).

ومن عفته وتقواه أن ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك لا يتصرف فى شىء منه لا قليل ولا كثير، بل يخرجه إلى مجلس القاضى، ويحصل ثمنه ويصرفه فى

---

(١) انظر: الروضتين (ج١/ ٦).

(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين ص (ج١ ٨، ٩).

عمارة المساجد المهجورة [١] . وكان نور الدين رحمه الله يتقبل النقد بصدر رحب مهما بلغت شدته، ومن ذلك ما فعله الواعظ أبو عثمان المنتخب بن أبى محمد الواسطى كان من صالحى زمانه تناول نقداً للدولة الزنكية فى أخذها الضرائب والمكوس فى حضور نور الدين نفسه، فحذره وخوفه مما هو فيه وقال لنور الدين هذه القصيدة:

مثل وقوفك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلماً ... فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت فى ... كأس المظالم طائش مخمور
عطّلت كاسات المدام تعففاً ... وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى ... فرداً وجاءك منكر ونكير
ماذا تقول إذا وقفت بموقف ... فرداً ذليلاً والحساب عسير؟
وتعلقت فيك الخصوم وأنت فى ... يوم الحساب مسلسل مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت فى ... ضيق القبور موسد مقبور
وودت أنك ما وليت ولاية ... يوماً ولا قال الأنام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة ... فى عالم الموت وأنت حقير
وحسرت عرياناً حزيناً باكياً ... قلقاً ومالك فى الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس ... عافى الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه ... أبداً وأنت معذب مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها ... يوم المعاد ويوم تبدو العور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاءً شديداً، وأمر بوضع المكوس والضرائب فى سائر البلاد [٢] . وكتب إلى الناس ليكون منهم فى حل مما كان

(١) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (٨٣).
(٢) انظر: البداية والنهاية (ج ١٢/٣٠٢).

أخذ منهم ، ويقول لهم :إنما صرف ذلك فى قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار، وكان يقول فى سجوده : اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب[1]. وكان رحمه الله يحارب روح التزلف والنفاق للمسؤولين، فمن ذلك أنه منع خطباء المساجد الذين يبالغون فى الدعاء له ويصفونه بالعبارات الرنانة التى تعودوا أن يتقربوا بها إلى قلوب السلاطين، فطلب إلى خالد بن محمد بن نصر القيسرانى أن يوقف ذلك، وأن يكتب له صيغة دعاء بسيط تطابق الواقع بأحواله وأفعاله، فكتب له الصيغة التالية :

« اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد فى سبيلك، المرابط لأعداء دينك :أبا القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين » .

فقرأ نور الدين نسخة الدعاء وعلق عليها العبارة التالية :« مقصودى ألا يكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال أأفرح بما لا أعمل؟! قلة عقل عظيم، الذى كتبت هو جيد اكتب به نسخاً حتى نسيره إلى جميع البلاد » ثم أضاف :« ثم يبدأ بالدعاء : اللهم أره الحق حقاً ، اللهم اسعده، اللهم انصره، اللهم فقهه . . . من هذا الجنس »[2] .

وعندما طلب من نور الدين أن يسمح للأمراء أن يعملوا بنوع من السياسة؛ لأن المفسدين وقطاع الطرق قد كثروا ويحتاج إلى نوع من السياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان فى البرية من يجيء ليشهد له؟ .

فلما وصل الكتاب إلى نور الدين قلبه وكتب على ظهره :« إن الله تعالى يخلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة فى المصلحة لشرعه لنا، فما لنا حاجة إلى زيادة

---

(١) انظر: د. حسين مؤنس – نور الدين محمود، ص (٤٠٠ ، ٤٠١) .

(٢) المصدر السابق، ص (٤٤٠ ، ٤٤١) .

على ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وشرعه، والعقول المظلمة لا تهدى فالله سبحانه وتعالى يهدينا إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم، وكان الذى طلب من السلطان نور الدين الشيخ عمر الملاء بطلب من الأمراء، فلما وصل رد السلطان إلى الشيخ عمر جمع أهل الموصل وقرأ عليهم الكتاب وقال: «انظروا فى كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد»(١).

هذا الذى ذكرت بعض سيرة السلطان نور الدين محمود ليعلم القارئ أن الذى يكرمه الله بنصره وتأييده لابد أن يكون ربانياً موصولاً بالله تعالى.

وكانت سياسة دولة نور الدين محمود لها أهداف رسمتها وسعت سعياً حثيثاً لتحقيقها، ومن أهم تلك الأهداف الواضحة المعالم:

أولاً: إعداد الشعب إسلامياً وتطهير الحياة الدينية والثقافية من التيارات الفكرية المنحرفة كالباطنية وآثار الفلسفة اليونانية، والممارسات العبيدية للعبادات والشعائر، ولهذا الهدف النبيل عمدت الدولة إلى بناء المدارس ودور القرآن ودور الحديث، واستقدمت مشاهير العلماء والتربية، وخاصة الذين تخرجوا من المدرستين التربويتين الغزالية والقادرية وانصبت الخطة التعليمية التربوية فى زمن السلطان نور الدين محمود على صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق مع أهداف الإسلام على أسس عقدية واضحة المعالم، وكانت محاضن هذا الإعداد فى المدارس والمساجد، وكان فى دمشق وحدها أكثر من مائة مسجد وركزت تلك الانطلاقة العلمية على بث روح الإسلام ذات المفاهيم السنية والطريقة النبوية، واستهدفت تجفيف وحسر التعاليم والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التى تركت آثاراً عميقة فى عقائد السكان وعاداتهم ومواقفهم السياسية والاجتماعية، والتى من أجلها وصفهم ابن جبير بأنهم لا إسلام لهم، وأنهم أهل أهواء وبدع إلا من رحم الله، ومنعت الدولة الزنكية كل المظاهر العبيدية فى البلدان التى ضمتها إلى

---

(١) ابن القاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص (٢٥، ٢٦).

أملاكها، فمنعت من الأذان «حى على خير العمل» والتظاهر بسب الصحابة، وأنكرت ذلك إنكاراً شديداً، ووقف علماء أهل السنة مع الدولة كجنود لها مخلصين، وعظم الخطب على طائفة الإسماعيلية الباطنية العبيدية وأهل التشيع عموماً، وضاقت صدورهم وهاجوا وماجوا، ثم سكتوا وأحجموا للخوف من سطوة الدولة الزنكية السنية (١) وكان الفقيه الشافعى قطب الدين النيسابورى الخراسانى صاحب القدس المعلى فى إحياء السنن فى زمن السلطان نور الدين محمود، وكذلك ابن الشيخ أبى النجيب الأكبر البغدادى كان من أعمدة الدولة الزنكية، وانضم إلى النورية من أصبهان شرف الدين عبد المؤمن بن شوردة.

وأوضح السلطان نور الدين سياسة الدولة التعليمية بقوله: «ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين».

وتبارى الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء فى إنفاق أموالهم فى بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لأفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها.

وكانت جماهير المسلمين العريضة من العمال والمزارعين والتجار مستهدفة من قبل الدولة الزنكية، فلم تترك إرشادهم وتوجيههم فزرعت فى نفوسهم العقيدة والأخلاق والقيم، وكان للتصوف المعتدل بقيادة الشيخ عبد القادر الجيلانى أثر واضح فى نفوس الجماهير، واستفادت الدولة الزنكية من الحركة الصوفية الإصلاحية القادرية، فأقامت لهم الأربطة والزوايا، واحترمت شيوخهم واستقدمتهم وهذبت الجماهير وزكتهم وفق خطة الدولة المرسومة، واهتمت الدولة بالإعداد العسكرى إلى جانب التعليم والإرشاد والتربية، ودربت كافة أتباعها تدريباً عسكرياً وبثت روح الجهاد فى صفوفهم وكان التدريب يقوم على دعامتين:

١- الإعداد المعنوى والروحى.

٢- ثم التدريب العسكرى وألف زعيم الدولة الزنكية السلطان نور الدين

---

(١) انظر: بدر الدين بن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، تحقيق: محمود زايد، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧١م.

محمود كتاباً فى الجهاد.

وتكاملت جهود العلماء والفقهاء والمربين والقادة والزعماء فى داخل مؤسسات الدولة المتعددة، وسعت فى تحقيق برامج الدولة النورية السنية.

وبسبب هذا التكامل والوفاق أصبحت الدولة النورية قطباً جذاباً لكافة العلماء والشيوخ فهاجروا إليها من كافة بقاع العالم الإسلامى، وانضووا تحت لوائها الإسلامى المجيد، وتجاوز عددهم الآلاف، واستفادت الدولة منهم وفق برامجها وتذكر كتب التاريخ أسماء الآلاف من المدارس ودور القرآن والحديث والأربطة والزوايا التى تضافرت فيها الجهود المذكورة، وأصبحت الدولة الزنكية بقيادة السلطان نور الدين تشرف على كافة الخطط والبرامج المرسومة التى بدأت تعطى ثمارها بتغيير البنية القديمة لبلاد الشام، ونشأ جيل التغيير الفعلى، وسيطرت الروح الإسلامية لدى هيئات المجتمع وأفراده، ووجهت نشاطاتهم فى جميع ميادين الحياة القائمة، وأصبح التغيير تغير أمة، وتحققت سنة الله الجارية فيهم[١]: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[الرعد: ١١].

ثانياً: استطاعت الدولة الزنكية أن تصبغ الإدارة بالصبغة الإسلامية وأن تدمج القيادات السياسية والفكرية بالمفاهيم والأحكام الشرعية.

فكان رجال نور الدين ومعاونوه وقادة جيشه على مستوى راقٍ من العلم والأخلاق، ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى، فقد كان فقيهاً أصولياً شغل مناصب مختلفة، منها السفارة والوزارة وناظر الأوقاف وناظر المالية والقضاء، واستمر على ذلك حتى قيادة صلاح الدين[٢].

ومنهم عبد الله بن محمد بن أبى عصرون الذى شغل منصب قاضى دمشق وناظراً للأوقاف[٣] وكذلك كان صلاح الدين فقيهاً درس الفقه الشافعى، وسمع

---

(١) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص (٢١٥-٢١٧).

(٢) انظر: السبكى، طبقات الشافعية (ج٦/١٨٨).

(٣) انظر: السبكى، طبقات الشافعية (ج٤/٢٣٧).

الحديث من أبى طاهر السلفى وغيره، روى الحديث عنه أناس مثل يونس بن محمد الفرقى والعماد الكاتب وغيرهم، ويقال: إنه كان يحفظ القرآن و«التنبيه» فى الفقه و«الحماسة» فى الشعر (١).

ومثله وزيره الشهير وكاتبه ومستشاره القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على والذى قال صلاح الدين عنه: لم أفتح البلاد بسيفى وإنما برأى القاضى الفاضل، وكان القاضى الفاضل يجمع إلى حنكته السياسية ورعاً فائقاً، فكان كثير الصيام والصلاة وقراءة القرآن، وكان متواضعاً يُكثر عيادة المرضى والإحسان للفقراء، لقد أظهر هذا الرعيل من صنوف المهارات فى التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات الأمة وتنظيمها ما هيأها لمجابهة التحديات فى الداخل والخارج، ومن أمثلة المهارات والمزايا ما يلى:

الأولى: تكامل القيادات الفكرية والسياسية، فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال أو انفراد فريق من القيادات دون الآخر، واعتمدت فى القرارات التى تتخذها على آراء العلماء والمختصين، فكان لدى نور الدين مجلس دورى يلتقى فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المختصون المنزلة الأولى فيه (٢).

الثانية: اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات، ولقد تميزت إدارة نور الدين بالشورى، وتبادل الآراء فى كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلى سائر المذاهب والصوفية، يبحث فى الإدارة والميزانية، فإذا بحث أمراً يخص الأمة جميعها، أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه، ولا يتعدى الرأى الذى يتفق عليه، ومن ذلك ما حدث فى قلعة دمشق فى ١٩ صفر عام ٥٥٤هـ / ١١ يوليو سنة ١١٤٩م حين عقد نور الدين مجلساً دعا إليه

---

(١) المصدر السابق (ج٧/ ٣٤).

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص (٢٢٥).

القضاة وكبار رجال الدولة ونفراً من الأعيان وشهود العدالة للنظر فى الأوقاف المرصودة للجامع الأموى، وكان شيوخ الجامع فيما مضى قد أدخلوا فى أوقاف الجامع عقارات وأعياناً أخرى داخلة فى المنافع العامة، فأحب نور الدين أن يفصل هذه عن تلك، لكى يستخدم أموال المنافع فى التحصينات العسكرية فى الثغور وبناء سور دمشق لصيانة المسلمين وأموالهم؛ لأن هذا من «أهم المصالح» عند نور الدين، وأقر المجلس رأياً يخالف ما أراده نور الدين ولم يأذنوا له بصرف «فواضل الأوقاف فى عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة على المسلمين، وأجازوا له أن يأخذ قرضاً من هذه الفواضل يستخدمه فى تلك المصلحة على أن يرده من بيت المال، ومع شدة حاجة نور الدين إلى المال لمطالب الحرب وأعمال الدفاع فى ذلك الحين فإنه قبل رأى المجلس بنفس راضية، ولم يمس أوقاف الجامع الكثيرة احتراماً للرأى وتكريماً للدين ورجاله(١).

الثالثة من المميزات التى ميزت تلك الإدارة هى غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية فى معالجة المشكلات التى قد تثور بين الأقران.

الرابعة: التفانى فى أداء الواجب المقدس بتعاون وتآخ إسلامى رفيع ابتغاء مرضاة الله، وكان تعلقهم بالدين والشرع شىء يدل على تربية عالية ومن حبهم لدينهم جعل الأمراء والحكام والسلاطين يتخيرون أسماء تدل على ذلك: عماد الدين، سيف الدين، معين الدين، نور الدين، صلاح الدين، أسد الدين، نجم الدين وزين الدين، وكان البويهيون الشيعة من حبهم للدنيا يسمون: عضد الدولة، بهاء الدولة، صمام الدولة.

وكان أمراء وحكام الدولة النورية يحبون الموت فى سبيل الله فى ساحات الوغى، وإذا تعذر ذلك كتبوا فى وصيتهم أن يدفنوا فى المدينة النبوية، فعل ذلك جمال الدين الموصلى، وأسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين(٢).

---

(١) د. حسين مؤنس، نور الدين محمود، ص (٤٠٤، ٤٠٥).

(٢) البداية والنهاية (ج١٢/ ٢٧٢).

توحيد بلاد الشام والديار المصرية

كانت سياسة نور الدين محمود الرشيدة تسعى لتوحيد المسلمين تحت قيادة واحدة ومنهج أصيل فاستطاع أن يضم دمشق مع حلب والرها وغيرها من المدن الإسلامية التى حررها المسلمون بقوة السيف وحب الشهادة، وبدأ نور الدين فى زحفه على حصون النصارى ومدنهم الواقعة بين مصر والشام، وكانت رغبة نور الدين فى تخليص بلاد مصر من العبيديين الباطنيين الحاقدين حلفاء النصارى أمنية غالية ومطلباً شرعيًّا رفيعاً فأرسل إلى مصر علماء وفقهاء ووعاظ لدعوة الناس، وتهيئة الرأى العام للفتح السنى المجيد، وتخليص البلاد من نتن الروافض البغيض، ومن أشهر العلماء الذين قاموا بهذا الدور محمد بن الموفق الخبوشانى الذى دخل مصر فى عام ٥٦٠هـ وبدأ يبشر بالإسلام الصحيح، ويلعن العبيديين، ويصفهم بالزندقة واليهودية، وتطاير الركبان بأخباره فى أنحاء العالم الإسلامى(١).

وكانت الدولة النورية السنية تتحين الفرصة للدخول العسكرى إلى مصر وجاءت الفرصة المناسبة عندما اختلف حكام مصر العبيديين فيما بينهم من أجل مصالحهم الدنيوية، فاستنجد الوزير شاور بنور الدين محمود، والقائد ضرغام بن ثعلبة بالصليبيين واحتدم الصراع ومر بمراحل حتى استطاع أسد الدين شيركوه الذى أرسله نور الدين إلى مصر أن يُحْكم قبضته، واستقر الأمر لنور الدين فى عام ٥٦٤هـ عندما تولى أمر مصر صلاح الدين بعد عمه أسد الدين، وتدرج صلاح الدين فى القضاء على الدولة العبيدية فى مصر، وإعادة السنة فيها ووحد الصفوف الإسلامية لفتح بيت المقدس.

وفاة نور الدين محمود

فى عام ٥٦٩هـ(٢) انتقل إلى رحمة الله السلطان السنى الغيور المخلص المجاهد مميت البدعة ومحيى السنة وهازم النصارى وناصر الدين السلطان نور الدين محمود بعد جهاد عظيم، وعمل جليل، وتفان نادر، وخدمة للدين، وتقدم تلميذه المخلص الذى تربى على يديه واختاره لقيادة الجيوش السلطان صلاح الدين الأيوبى.

---

(١) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص (٢٦٢). (٢) البداية والنهاية (ج١٢/٣٩٧).

المبحث الثالث
صلاح الدين الأيوبي محرر القدس ومزيل دولة العبيديين من مصر

ولد السلطان يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢هـ بقلعة تكريت فى العراق، وكان والده أيوب بن شادى والياً عليها، ثم انتقل الوالد إلى الموصل ومعه أخوه أسد الدين شيركوه، وتربى الشبل الأيوبى فى كنف والده وعمه المجاهدين، وبدأ يترقى فى كتائب المجاهدين، وانتدب لمرافقة عمه أسد الدين عندما أرسل نور الدين محمود إلى مصر، وتسلم منصب وزارة التفويض بعد وفاة عمه فى نهاية الدولة العبيدية، وبدأ فى إرجاع مصر للخلافة السنية العباسية متدرجاً فى تنفيذ هدفه النبيل، والذى اشتاقت إليه نفوس المسلمين، فعزل قضاة مصر الروافض العبيديين، وأسند أمر القضاء إلى عبد الملك بن درباس الشافعى، وقطع الأذان بـ «حى على خير العمل» وأقام الخطبة للخليفة العباسى بعد أن انقطعت الخطبة للعباسيين بمصر ٢٠٨ سنة، وبشر نور الدين محمود الخليفة العباسى بذلك، وفرح الناس، وقضى صلاح الدين على كل المحاولات الفاشلة لإرجاع مصر للخلافة العبيدية، وأحسن إلى الرعايا إحساناً كثيراً.

وقال العماد الأصبهانى فى رجوع مصر للخلافة العباسية أبياتاً شعرية رائعة بعد وفاة العاضد العبيدى وزوال ملكه ودولته من مصر:

توفى العاضد الدعى مما ... يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا ... يوسفها فى الأمور محتكما
قد طفئت جمرة الغواة وقد ... داخ من الشرك كل ما اضطر ما
وصل شملُ الصلاح ملتئماً ... بها وعقدُ السداد منتظماً
لما غدا مشعراً شعار بني ... العباس حقًا والباطل اكتتما
وبات داعى التوحيد منتظراً ... ومن دعاة الإشراك منتقماً

وظل أهل الضلال فى ظلل	داحية من غبائه وعمى
وارتكس الجاهلون فى ظلم	لما أضاءت منابرُ العلما
وعاد المستضيء معتلياً	بناء حقٍّ بعد ما كان منهدما
أعيدت الدولة التى اضطهدت	وانتصر الدين بعد ما كان اهتفما
واهتزَّ عطف الإسلام من جلل	وافتر يغر الإسلام وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحاً	فليقرع الكفر سنه ندما
عاد حريم الأعداء منتهك الهدى	وفى الطغاة منقسما
قصور أهل القصور أخربها	عامر بيت من الكمال سما
أزعج بعد السكوت ساكنها	ومات ذلاً وأنفهُ رغما (١)

وكان سقوط الدولة العبيدية سنة ٥٦٧هـ وقال ابن كثير فى ذلك :« قد كانت مدة ملك الفاطميين مائتين سنة وكسراً، فصاروا كأمس الذاهب :﴿ **كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا** ﴾[هود: ٩٥] وكان أول من ملك منهم المهدى، وكان من سلمية حداداً اسمه عبيد، وكان يهودياً، فدخل بلاد المغرب وتسمى بعبيد الله، وادعى أنه شريف علوى فاطمى، وقال عن نفسه إنه المهدى، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء والأئمة بعد الأربعمائة والمقصود أن هذا الدعى الكذاب راج له ما افتراه فى تلك البلاد، وآزره جماعة من الجهلة، وصارت له دولة وصولة، ثم تمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية نسبة إليه، وصار ملكاً مطاعاً، يظهر الرفض وينطوى على الكفر المحض، ثم كان من بعده ابنه القائم محمد، ثم ابنه المنصور إسماعيل، ثم ابنه معد، وهو أول من دخل ديار مصر منهم، وبنيت له القاهرة المعزية والقصران، ثم ابنه العزيز نزار، ثم ابنه الحاكم منصور، ثم ابن الطاهر على، ثم ابنه المستنصر معد ، ثم ابنه المستعلى أحمد، ثم ابنه الآمر منصور، ثم ابن عمه الحافظ عبد المجيد، ثم ابنه الظافر إسماعيل، ثم الفائز عيسى، ثم ابن عمه العاضد عبد الله وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر ملكاً، مدتهم مائتان ونيف وثمانون سنة، وكذلك

---

(١) البداية والنهاية (ج١٢ / ٢٨٤).

عدد خلفاء بنى أمية أربعة عشر أيضاً ولكن مدتهم نيفاً وثمانين سنة إلى أن قال . . .

وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، وظهرت فى دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثرت بأرض الشام النصيرية والدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكامله، حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك والشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وأنطاكية وجميع ما والى ذلك، وقتلوا من المسلمين خلقاً وأمماً لا يحصيهم إلا الله، وسبوا ذرارى المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ولا يوصف، وكل هذه البلاد كانت الصحابة قد فتحوها وصارت دار إسلام، وأخذوا أموال المسلمين ما لا يحد ولا يوصف، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن الله سلم، وحين زالت أيامهم وانتفض إبرامهم أعاد الله عز وجل هذه البلاد كلها إلى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته»[١].

وقد مدح علماء أهل السنة وفقهاؤهم وحكامهم هذا الفعل الجميل لصلاح الدين ألا وهو القضاء على دولة العبيديين الرافضية الباطنية وأكثر الشعراء القصائد فى مدح صلاح الدين فقال بعضهم:

أبدتم من بلى دولة الكفر من ... بنى عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية مجوس ... وما فى الصالحين لهم أصل
يُسرّون كفراً يظهرون تشيعاً ... ليستروا سابور عمهم الجهل[٢]

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة العبيدية هدفاً استراتيجيًا للقضاء على الوجود النصرانى، والنفوذ الباطنى فى بلاد الشام؛ ولذلك حرص على إعادة

---

(١) البداية والنهاية (ج١٢/ ٢٨٧).

(٢) البداية والنهاية (ج١٢/ ٢٨٨).

مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوى الكفاءة المنشودة، فتمم الله له ما أراد على يد جنديه المخلص صلاح الدين الذى نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة.

وبعد أن استقرت أمور البلاد والعباد فى مصر، وأزيلت البدعة، وأحييت السنة، وأميتت الفتنة، وانتقل نور الدين إلى ربه الغفور الرحيم، آل الأمر إلى صلاح الدين بعد فتن استطاع أن يقضى عليها، ووحد بلاد الشام ومصر تحت زعامته الفتية، وشرع فى تنفيذ الأهداف المرسومة للدولة النورية. وكان من أهداف نور الدين العظيمة تحرير ديار المسلمين من النصارى وتحرير بيت المقدس، حتى إنه هيأ منبراً عظيماً لهذه الغاية، ولكنه مات قبل تحقيق هذا الهدف الغالى الذى ادخره الله لصلاح الدين، فعزم صلاح الدين على مواصلة حركة الجهاد المقدس، وفك الحصون والمدن من النصارى بالقوة بخطة واضحة محكمة، فانتصر على الفرنجة فى موقعة «مرج العيون» سنة ٥٧٥هـ وموقعة «بانياس» وأسر رؤساءهم ودمر حصن الأحزان فى صفد، وما زال يناوش الفرنجة وينتزع منهم الحصون حصناً بعد حصن حتى تجمع عنده جيش كبير فى سهل حطين، حيث كانت الموقعة الكبرى التى كسرت عظام الصليبيين ومهدت لفتح القدس، وقد أسر وقتل معظم من حضرها من الفرنجة: «فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هنالك من قتيل، ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل»[(١)].

وكان من الأسرى صاحب الكرك «أرناط» الذى كان يؤذى الحجاج وسب رسول الله ﷺ، وكان قد وصل صلاح الدين ذلك فنذر لله ليقتلنه بنفسه حمية لدينه وحبًّا لرسوله ﷺ فقتله صلاح الدين بنفسه ووفى بنذره وخلص المسلمين من شره.

وكانت موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ وركب الصليبيين النصارى غم وهم وحزن

---

(١) انظر: الروضتين (٢/ ٧٨).

ورعب وزحفت جيوش الناصر صلاح الدين تحرر مدن المسلمين، وتذل النصارى الحاقدين، وتخلص أسرى المسلمين من الأسر الذى طال أمده، وأرسل السلطان صلاح الدين أعيان الفرنج ومن لم يقتل من رؤوسهم، وبصليبهم الذى كانوا يحملونه فى حروبهم ويزعمون أن المسيح عليه السلام صلب عليه والمسمى عندهم صليب الصلبوت بصحبة القاضى ابن أبى عصرون إلى دمشق ليودعوا فى قلعتها، فدخل الصليب منكساً وكان يوماً مشهوداً.

وسار السلطان إلى قلاع النصارى ومدنهم فحرر قلعة طبرية، ثم خلص عكا من النصارى وفك أسرى المسلمين منها وكانوا أربعة آلاف مسلم ثم صيدا وبيروت ثم عسقلان ونابلس ثم بيسان وأرض الغور، فملك ذلك كله.

وأمر السلطان جيوشه أن ترتاح فى هذه الأماكن ويستعدوا لفتح القدس وطار فى الناس الخبر، وعلموا عزم السلطان على ذلك فقصده العلماء والصالحون من أماكن عديدة تطوعاً، وجاؤوا إليه كجنود فى خدمته الميمونة (١).

وبدأت بشائر التحرير بزحف جيوش صلاح الدين نحو بيت المقدس الذى استمر ثنتين وتسعين سنة تحت سيطرة النصارى الحاقدين وضربت جيوش الناصر صلاح الدين الحصار المحكم على بيت المقدس واستمر حصارها.

وتذكر كتب التاريخ أن صلاح الدين عندما سار إلى بيت المقدس وصلته رسالة من أحد المأسورين فى القدس فيها أبيات على لسان المسجد الأقصى:

يا أيها الملك الذى ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفى منجس (٢)

وبعد اشتداد الحصار على النصارى طلبوا الأمان ونزل ملك بيت المقدس يترقق لسلطان وذل ذلاً عظيماً، فأجابهم صلاح الدين ودخل المسلمون القدس ووفوا بالصلح المضروب مع النصارى، وشرعوا فى تنظيف المسجد الأقصى مما كان

---

(١) انظر: الروضتين (ج٢/ ٧٨).

(٢) انظر: صلاح الدين بطل حطين، لعبد الله علوان، ص (٧٥).

فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وأعيد على ما كان عليه زمن المسلمين، وغسلت الصخرة بالماء الطهور وأعيد غسلها بماء الورد والمسك الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة مخبوءة عن الزائرين، ووضع الصليب عن قبتها وعادت إلى حرمتها، وامتن السلطان صلاح الدين على بنات الملوك ومن معهن من النساء والصبيان والرجال، ووقعت المسامحة في كثير منهم وشفع في أناس كثير فعفا عنهم، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب في العسكر، ولم يأخذ منه شيئاً مما يقتني ويدخر، وكان رحمه الله كريماً مقداماً شجاعاً حليماً[١]

وكان ذلك في بيت المقدس فقال: «لما تطهر بيت المقدس مما فيه من الصلبان والنواقيس والرهبان والقسس، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالأذان وقرئ القرآن ووحد الرحمن، وكانت أول جمعة أقيمت في اليوم الرابع من شعبان، بعد يوم الفتح بثمان، فصف المنبر إلى جانب المحراب، وبسطت البسط وعلقت القناديل وتلي التنزيل، وجاء الحق وبطلت الأباطيل، وصفت السجادات وكثرت السجدات وأقيمت الصلوات، وأذن المؤذنون، وخرس القسيسون، وزال البؤس، وطابت النفوس، وأقبلت السعود، وأدبرت النحوس، وعُبد الله الأحد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ٣، ٤] وكبره الراكع والساجد، والقائم والقاعد، وامتلأ الجامع وسالت لرقة القلوب المدامع، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال، ولم يكن عيِّن خطيب فبرز من السلطان المرسوم الصلاحي وهو في قبة الصخرة أن يكون القاضي محيي الدين بن الزكي اليوم خطيباً، فلبس الخلعة السوداء وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة، وذكر فيها شرف بيت المقدس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات، وما فيه من الدلائل والأمارات، وقد أورد الشيخ أبو شامة الخطبة في الروضتين بطولها وكان أول ما قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ٤٥].

---

(١) انظر: صلاح الدين بطل حطين، ص (٧٥).

ثم أورد تحميدات القرآن كلها، ثم قال: «الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذى قدر الأيام دولاً بعدله من طله وهطله «الندى والمطر» الذى أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر إجهاره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك، ورافض الإفك، الذى أُسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾،﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٥، ١٧]. وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان»(١).

واستمر فى خطبته الرفيعة المنيعة الممزوجة بالعاطفة الجياشة والمشاعر والأحاسيس المحبوسة إلى أن قال: فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية، والجيوش العثمانية والفتكات العلوية جددتم للإسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيكم أفضل الجزاء، وشكراً لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء، وتقبل الله منكم ما تقربتم إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء، فاقدروا – رحمكم الله – هذه النعمة حق قدرها، وقوموا إلى الله بواجب شكرها فله النعمة

---

(١) البداية والنهاية (ج١٢/ ٣٤٦).

بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة...[١] إلى آخر ما جاء في الخطبة.

وبعد أن تم هذا الفتح العظيم توافد إلى السلطان الشعراء والعلماء والكتاب والمؤرخون ينثرون أمامه من بلاغة الشعر، وحكم المقال ما قد ملأ الكتب الطوال، وإليك ما قاله الشاعر أبو الحسن بن على الجوينى:

جند السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيدُ في يده ... صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ ... والإسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم ... بأمر من هو للمعوان معوان
إذا طوى الله ديوان العباد فما ... يُطوى لأجر صلاح الدين ديوان[٢]

وقال محمد بن سعد نقيب الأشراف بالديار المصرية:

أترى مناماً ما بعينى أبصر ... القدس تفتح والفرنجة تُكسَرُ
ومليكهم في القيد مصفود ولم ... يُر قبل ذلك لهم مليك يؤسر
فُتح الشام وطُهر القدسُ الذى ... هو فى القيامة للأنام المحشر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقها عمرُ الإمام الأطهرُ
ولأنت عثمان الشريعة بعده ... ولأنت فى نصر النبوة حيدر[٣]

وكانت بنود الصلح التى تمت بين صلاح الدين والنصارى: «أن يسمح لهم بالخروج لمدة أربعين يوماً، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والولد اثنين، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير»[٤].

---

(١) انظر: صلاح الدين بطل حطين، ص (٧٨).
(٢) المصدر السابق، ص (٧٨، ٧٩).
(٣) المصدر السابق، ص (٧٩).
(٤) نفس المصدر السابق.

إلا أن السلطان صلاح الدين تجاوز بند المعاهدة وعامل الصليبيين معاملة عطف ورحمة وإحسان، ليعطى للبغاة المعتدين، والملوك المستبدين الظالمين والصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين النموذج الطيب، والقدوة الصالحة فى السماحة والعدل والعفو عند المقدرة.

فأعطى للنصارى العاجزين الذين تركهم أمراؤهم ولم يجدوا من يعينهم أعطاهم أموالاً ودواباً لتحمل أثقالهم إلى ما يريدون.

وكانت إحدى نساء ملك من ملوك الروم قد ترهبت واستأذنت للذهاب إلى زوجها والمكث معه فأذن لها وسيرها إلى زوجها السجين للبقاء معه بقلعة نابلس واجتمعت مجموعة من النساء وتوسلن للسلطان فى أزواجهن وأبنائهن، ففرق لهن، وأمر بالإفراج عنهم، وفتح للعجزة والفقراء باب الخروج بدون دفع جزية، وذكر كتاب الغرب من أمثال «استيفن سن» «استانلى لين بول» الشيء الكثير فى بر وإحسان صلاح الدين بالنصارى.

وأذن السلطان صلاح الدين لرجال الدين والناس كافة أن يحملوا معهم ما شاؤوا من المتاع والأموال، فأخذوا ما شاؤوا دون أن يعترضهم معترض، تاركين ما لا قبل لهم بحمله، فابتاعه المسلمون منهم.

وكان أحد البطارقة قد خرج بأمواله وذخائره، وكانت كثيرة جداً لم يصرفها فى فداء الفقراء والمساكين، فقيل للسلطان: «لم لا تصادر هذا فيما يحمل، وتستعمله فيما تُقَوِّى به أمر المسلمين؟» فقال لهم السلطان: «لا آخذ منه غير العشرة الدنانير، ولا أغدر به»(١).

أما معاملة النصارى الحاقدين للمسلمين عندما انتزعوها من أيدينا فى عام ٤٩٢هـ فإليك ما قاله «مل» المؤرخ الإنجليزى: «كان المسلمون يُقتَّلون فى الشوارع والبيوت، ولم يكن للقدس من ملجأ يلجأ إليه من نتائج النصر، فقذف بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار، وانزوى البعض الآخر فى

(١) انظر: صلاح الدين بطل حطين، ص (٨٣).

القصور والأبراج وحتى فى المساجد، غير أن هذا كله لم يخفهم عن أعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا ثم يقول: «ولقد اندفع المشاة والفرسان وراء الهاربين، فلم يسمع فى وسط هذا الجمع المكتظ إلا نزعات الموت وسكراته، ومشى أولئك المنتصرون فوق آكام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوى».

فهذا صلاح الدين المسلم السنى الربانى يقدم للأجيال الإنسانية دروساً فى غاية الروعة والجمال نحتت فى صفحات تاريخ البشرية لتدل على عظمة هذا الدين الذى أخرج للوجود مثل نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبى، فعليهم من الله المغفرة والرحمة والرضوان، قال الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية	**فلما ملكتم سال بالدم أبطح**
وحللتم قتل الأسارى وطالما	**غدونا على الأسرى نمن ونصفح**
فحسبكم هذا التفوت بيننا	**وكل إناء بالذى فيه ينضح**

إنى وصلت فى دراساتى للشخصيات الإسلامية أنه ما ظهر قائد ربانى وحقق انتصارات ميدانية وأزاح شعارات كفرية إلا كان خلفه علماء وفقهاء يوجهونه ويرشدونه نحو الرأى السديد، وهذا ما حدث لصلاح الدين حيث كان اهتمامه بالعلماء والفقهاء عظيماً، إلا أن هناك عالم وفقيه وأديب له أثر واضح فى حياته لابد من التعريف به ألا وهو :

أ - القاضى الفاضل

قال الذهبى فى ترجمته :«المولى الإمام العلامة البليغ، القاضى الفاضل محيى الدين، يمين المملكة، سيد الفصحاء، أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن بن أحمد بن المفرج، اللخمى، الشامى العسقلانى المولد، المصرى الدار، الكاتب، صاحبُ ديوان الإنشاء الصلاحى، ولد سنة ٥٢٩هـ[١].

قال عنه العماد الأصبهانى: «قضى سعيداً، ولم يُبق عملاً صالحاً إلا قدَّمه، ولا

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٢١/٣٣٨، ٣٣٩).

عهداً فى الجنة إلا أحكمه، ولا عقد برٍّ إلا أبرمه، فإن صنائعه فى الرقاب، وأوقافه متجاوزة الحساب، لا سيما أوقافه لفكاك الأسرى، وأعان المالكية والشافعية بالمدرسة، والأيتام بالكتاب، كان للحقوق قاضياً، وفى الحقائق ماضياً، والسلطان له مطيع، وما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرائه، ومقاليد غناه وغنائه، وكنت من حسناته محسوباً، وإلى آلائه منسوباً، وكانت كتائبه كتائب النصر، ويراعته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبر، وعبارته نافثة فى عقد السحر، وبلاغته للدولة مجمّلة وللمملكة مكمِّلة، وللعصر الصلاحى على سائر الأعصار مفضلة، نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب وأعربه من الإبداع، ما ألفيته كرر دعاء فى مكاتبة، ولا ردد لفظاً فى مخاطبة إلى أن قال: فإلى من بعده الوفادة؟ وممن الإفادة، وفيمن السيادة؟ ولمن السعادة؟ (١).

ومدحته الشعراء على حسن تدبيره وآرائه النافذة، وقدرته على حل المعضلات التى تتعرض لها دولة صلاح الدين، واجتهاده فى الصيام والقيام وحبه للعلم، وتواضعه وحلمه وجوه وكرمه وإنفاقه وجهاده، فقال فيه هبة الله ابن سيناء الملك:

وأتت سعادتــــه إلى أبوابـــــه	**لا كالذى يسعى إلى أبوابها**
فلتفتخر الدنيا بسائس ملكها	**منه ودارس علمها وكتابها**
صوامها قوامهــــــا علامهـــا	**عمالها بذالها وهَّابهــــا (٢)**

ركن إليه السلطان صلاح الدين ركوناً تاماً، وتقدم عنده كثيراً.

وكان رحمه الله ذا غرام بالكتابة وبالكتب أيضاً، اشتهر بالدين والعفاف، والتقى، والمواظبة على أوراد الليل والصيام والتلاوة، فلما تملك أسد الدين مصر، أحضره فأعجب به، ثم استخلصه صلاح الدين لنفسه، وكان قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد، يشتغل بالتفسير والأدب، وكان قليل النحو، لكنه له دربة

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٢١/ ٣٤٠).

(٢) المصدر السابق (ج٢١/ ٣٤١).

قوية، وكان متقللاً فى طعامه ومنكحه وملبسه، ولباسه البياض، وكان يكثر من تشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وله معروف فى السر والعلانية، ضعيف البنية رقيق الصورة (١).

قال فى حقه السلطان صلاح الدين: «لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل»(٢).

وقال فى مدحه العماد الأصبهانى:

عـــاينت طـود سكينـة ورأيت ... الشمس فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة سابحاً ... ببيـانه ذيل الفخـار لوائل
حلفُ الحصافة والفصاحة ... والسماحة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغمر خضمه ... طامى العباب وما له من ساحل
فى كفه قلم يعجل جريه ... ما كان من أجل ورزق عاجل
أبصرت قُسّا فى الفصاحة معجزاً ... فعرفت أنى فى فهّةِ باقلِ(٣)

وعندما طلب القاضى الفاضل من السلطان صلاح الدين أن يعين بدله عماد الدين الأصبهانى ليحل تراجم الأعاجم، فقال له صلاح الدين: ما لى عنك مندوحة، أنت كاتبى ووزيرى، وقد رأيت على وجهك البركة فإذا استكتبت غيرك تحدث الناس (٤) واتفقا أن يقوم عماد الدين الأصبهانى بدل القاضى عندما يغيب القاضى الفاضل.

قال صاحب النجوم الزاهرة: وفضل الفاضل وبلاغته أشهر من أن يذكر ومن شعره قوله:

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٢١/ ٣٤٣).

(٢) النجوم الزاهرة (ج٦/ ١٥٧).

(٣) النجوم الزاهرة (ج٦/ ٧٣، ٧٤).

(٤) المصدر السابق (ج٦/ ٧٤).

وإذا السعادة لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهى حبائل ... واقتد بها الجوزاء فهى عنان (١)

إن القاضى الفاضل رحمه الله كان موضع ثقة صلاح الدين ومحل أسراره واستشارته فلا يقطع أمراً دونه(٢)، فكان يستشره فى المهمات الكبيرة خاصة، بل كان يقول العماد الأصبهانى الكاتب عنه: «سلطانه مطاع والسلطان له مطيع، وهو صاحب القريحة الوقادة والبصيرة النفاذة»(٣).

وهو الذى كتب لصلاح الدين وهو محاصر لعكا يخوفه من الذنوب، ويحذره من أن يظلم الجنود أحداً فيكون سبباً للهزيمة يقول ابن كثير رحمه الله فى ذلك: «وكان القاضى الفاضل بمصر يدير الممالك بها، ويجهز للسلطان ما يحتاج إليه من الأموال، وعمل الأسطول والكتب السلطانية، فمنها كتاب يذكر فيه أن سبب هذا التطويل فى الحصار كثرة الذنوب، وارتكاب المحارم بين الناس، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه، وامتثال أمره، فكيف لا يطول الحصار، والمعاصى فى كل مكان فاشية، وقد صعد إلى الله منها ما يتوقع بعده الاستعاذة منه، ومنها كتاب يقول فيه: إنما أُتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره، لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرج إلا ربه، ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان الذى يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، وإنما النصر من عند الله، ولا نأمن من أن يكلنا الله إليها، والنصر به واللطف منه، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا، فلولا أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن فى الطريق عائق، خار الله لمولانا فى القضاء السابق

---

(١) النجوم الزاهرة (ج٦/ ١٥٧).
(٢) البداية والنهاية (ج١٢/ ٣٤٠).
(٣) الروضتين (ج٢/ ٢٤١).

واللاحق، إلى أن قال ابن كثير فيه: «وقد أورد الشيخ شهاب الدين صاحب الروضتين ها هنا كتباً عدة من الفاضل إلى السلطان صلاح الدين، فيها فصاحة وبلاغة ومواعظ وتخصيص على الجهاد، فرحمه الله من إنسان ما أفصحه، ومن وزير ما كان أنصحه، ومن عقل ما كان أرجحه»(١).

وبأمثال هؤلاء ينصر الله دينه ويسدد رمى أوليائه، وقد أكرم الله تعالى صلاح الدين بهذا العالم الجليل الأديب الفقيه الوزير الناصح الزاهد التقى الورع المنفق صاحب الدعوة المستجابة.

وفاته

فى سنة ٥٩٦هـ لبى القاضى الفاضل نداء ربه عندما كان أحوج ما كان إلى الموت عند تولى الإقبال وإقبال الإدبار، وهذا يدل على أن لله به عناية (٢).

وذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه كان بين الملك العادل أبى بكر بن أيوب والفاضل وحشة فلما بلغ الفاضل مجىء العادل إلى مصر دعا الله أن يقبضه إليه فمات قبل دخول العادل، فعندما كان العادل داخلاً من باب النصر، كانت جنازة القاضى الفاضل خارجة من زويلة (٣).

ب - وفاة السلطان الناصر صلاح الدين

عندما وقفت على ترجمة صلاح الدين رحمه الله، ووصلت إلى آخر لحظات حياته ذرفت عيونى بالدموع، واهتز قلبى بالخشوع، لهذا البطل العملاق الذى كان للإسلام رداءً وحرزاً وكهفاً من كيد الكفرة اللئام، وكانت وفاته فى عام ٥٨٩هـ وتذكر كتب التاريخ أن أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، فعندما كان يقرأ عليه القرآن وهو فى سكرات الموت مر القارئ على قوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ

---

(١) انظر: البداية والنهاية (ج١٢/ ٣٦١).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٢١/ ٣٤٣).

(٣) انظر: النجوم الزاهرة (ج٦/ ١٥٧).

وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر:٢٢].

فقال صلاح الدين رحمه الله: وهوكذلك صحيح. فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو فى آخر رمق، فلما قرأ القارئ: ﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾[التوبة:١٢٩] تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه، ومات رحمه الله وجعل الجنة مثواه، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة، ثم أخذوا فى تجهيزه وحضر جميع أولاده وأهله، وكان الذى تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعى، وكان الذى أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضى الفاضل من صلب ماله الحلال، وأمَّ الناس عليه ابن الزكى، ثم دفن فى داره بالقلعة المنصورة فى دمشق، ونزل ابنه الأفضل فى لحده ودفنه وهو يومئذ سلطان الشام، ويقال :إنه دفن معه سيفه الذى كان يحضر به الجهاد، وذلك عن أمر القاضى الفاضل، وتفاءلوا بأن يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنة إن شاء الله(١).

لقد وقع نبأ صلاح الدين على المسلمين جميعاً وقع الصاعقة للصدمة الفادحة، والمصاب الجلل وهذا القاضى ابن شداد يصف لنا ذلك المشهد المريع إذ يقول: «وكان يوم موته يوماً لم يُصب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وغشى القلعة والمُلك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع الناس أنهم يتمنون فدا من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا على ضرب من التجوز والتخرص إلى ذلك اليوم، فإنى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قُبل الفداء لفدى بالأنفس (٢).

لقد كان صلاح الدين محمود رحمه الله قائداً ربانياً تربى فى أجواء علمية رسخت فى زمن نور الدين، واستمرت فى عهده فأخرجت هذا الأنموذج الرفيع الذى أعاد الله به للأمة عزتها وقوتها.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (ج١٢/ ٥).

(٢) انظر: النجوم الزاهرة (ج٦/ ٥٢).

ج - الملامح الرئيسية فى شخصية صلاح الدين

أولاً : تقريبه للعلماء وحبهم واحترامهم واستشارتهم وإعطائهم المكانة اللائقة بهم، وإحياء المدارس والعلم، وحضور السلطان مجالس العلم، بل إن السلطان صلاح الدين يذهب إلى الإسكندرية مصطحباً معه ولديه على وعثمان لحضور مجلس الحافظ السلفى، وترقى العالم كمال الدين الشهرزورى إلى مرتبة الوزارة، ومن مستشارى صلاح الدين العالم الواعظ ابن نجا الحنبلى، ووزيره القاضى الفاضل من أكابر الكتاب محبًّا للعلم وأهله، ومنهم نجم الدين الخبوشانى، والفقيه الشافعى، وهو الذى شجع صلاح الدين على إنهاء الدولة العبيدية وقطع الخطبة لهم، بنى له صلاح الدين مدرسة وفوض تدريسها إليه، ومن الفقهاء الأمراء الفقيه الهكارى :« وكان جندياً شجاعاً كريماً، تفقه على الشيخ أبى القاسم البرزى واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه، وكان يخاطب صلاح الدين بما لا يقدر عليه غيره، توفى وصلاح الدين محاصر لعكا »(١).

وكان إذا زاره عالم اهتم به جداً، ولا يتركه حتى يزوده بالمال والأمتعة له ولجيرانه وأقربائه.

إن هذه الانتصارات العظيمة لا تكون إلا بوجود مثل هذا التلاحم والتعاطف بين الأمراء والعلماء، وقال القاضى ابن شداد : « وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً »(٢) وكان آل المقدسى الذين سكنوا حى الصالحية فى دمشق أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغنى والشيخ العماد، كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج صلاح الدين فيها، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها »(٣).

---

(١) وفيات الأعيان (ج٣/٤٩٧).

(٢) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (٩٤).

(٣) انظر: البداية والنهاية (ج١٣/٣٩).

إن القادة الذين يحترمون العلماء والفقهاء فى حقيقة عملهم هذا قد أخذوا بسنة من سنن التمكين والنصر والغلبة على الأعداء.

إن الذين يهاجمون علماء الأمة ومفكريها وساستها ومربيها وفقهاءها ومحدثيها وحركييها يخدمون المخططات اليهودية والنصرانية والطاغوتية والاستخبارية سواء شعروا بذلك أم لا، والذين لا يزالون يطعنون فى علماء الأمة بفعلهم هذا يكونون قد ابتعدوا عن منهج أهل السنة والجماعة الذى يقول: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل»(١).

ولقد رأيت أقواماً يستهزئون بالعلماء والفقهاء والمحدثين والدعاة، بل بعضهم كفر بعض قادات الحركات الإسلامية بدون بينة، بل بجهل وعناد واستخفاف، وبعضهم يتلذذ بغيبة العلماء والطعن فيهم، وينشر ذلك على المنابر وفى الصحف، ولو أتيحت له الإذاعة لهذا الغرض لطار فرحاً، وما يدرى المسكين أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله فى هتك منتقصيهم معلومة، وما يدرى هذا المتعالم أن الاعتبار فى الحكم على الأشخاص بكثرة الفضائل، قال ابن القيم رحمه الله: « ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذى له فى الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل مأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته فى قلوب المسلمين»(٢).

إن تاريخ الأمة الإسلامية المجيد يبين لنا أهمية احترام العلماء والدعاة وتقديمهم فى إعزاز هذا الدين. فعلى العاملين لإعادة ماضينا المجيد وعزنا التليد أن يعملوا على إعادة دور العلماء والفقهاء، وإلزام الناس باحترامهم، ومنع العملاء

---

(١) شرح الطحاوية (ج٢/ ٧٤٠).

(٢) أعلام الموقعين (ج٣/ ٢٨٣).

المندسين فى صفوفنا للطعن فى علمائنا بالأقوال المزخرفة والأساليب الملتوية للضحك على شبابنا حتى لا يفلحوا فى دنيا ولا فى آخرة.

ثانياً: ومن الملامح الواضحة فى شخصية صلاح الدين شغفه بالجهاد، قال القاضى ابن شداد: « وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً إلى فى الجهاد، وفى الإرفاد لصدق، وبر فى يمينه، ولقد كان الجهاد قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا فى آلته، ولا اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره، ويحث عليه، ولقد هجر فى محبته «الجهاد» أهله وولده ووطنه وسكنه، وقنع بالدين بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد، وقد سرنا مع السلطان على الساحل نطلب عكا وكان الزمان شتاءً عظيماً، والبحر هائجاً وموجه كالجبال، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم عندى، واستخففت رأى من يركب البحر، بينما أنا فى ذلك إذ التفت إلىّ وقال فى نفسه: إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندى وحكيت له ما خطر لى، فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه، وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر، وهو صابر على شدة الألم ويقول: «إذا ركبت يزول عنى الألم حتى أنزل»[١].

إن فى زماننا هذا اندفاع عظيم نحو ساحات الوغى، والشاهد على ذلك ما حدث فى أفغانستان، وما نسمعه من تضحيات عظيمة فى الأرض المحتلة، إلا أن

---

(١) الروضتين (ج٢/ ٢٢١، ٢٢٢).

فى بعض بلاد المسلمين من أشرف على الحركات الجهادية أخوة لنا تنقصهم خبرات كثيرة من فهم لسنن الله فى تغيير الشعوب والمجتمعات، والأهم من ذلك معرفتهم فى دين الله ضعيفة، وخصوصاً فى السياسة الشرعية وأحكام الدماء والأعراض والأنفس، والتدرج فى تربية الشعوب حتى تتهيأ لتصبح مجاهدة وشرعوا فى إصدار الفتاوى والأحكام التى قرؤوها من كتب تخدم غرضهم واهتموا بتربية الشباب عليها، وأقحموا أتباعهم فى معارك خاسرة ضد حكوماتهم فى صراع عنيف ينتهى بقتل بعضهم، وسجن آخرين منهم ومن غيرهم، وتشريد العوائل الأخيار من المسلمين، وتسببوا فى تعطيل مشاريع دعوية تربوية وفعلهم هذا فيه تجاوز من عدة أمور:

أولاً: إن الجهاد حق الأمة وليس حق أفراد أو جماعات وتقرره الأمة بواسطة أهل الحل والعقد من الفقهاء والعلماء الذين تختارهم، ويسبق هذا مجهود تربوى وعلمى وفقهى فى أوساط الشعب لتعريفهم بحقيقة دينهم، واستضافة البيان، ويكون تحت إشراف العلماء والفقهاء، فإن كان الشعب الذى نتكلم عنه لا يوجد فيه علماء وفقهاء فلا بد من دفع مجموعة من أبنائه للتفرغ لطلب العلم وأخذه من أهله، ممن شهدت لهم الأمة أنهم أهلاً لذلك حتى يتهيئوا للإشراف على العمل الجليل، حتى تجد الأمة من ترجع إليه فى مشاكلها العظيمة، ويأخذ بيدها نحو تحكيم شرع الله بسنة الله فى التدرج، وخصوصاً فى عصرنا هذا الذى تموج فيه الفتن.

فالأمور العظيمة كالجهاد فى سبيل الله تعالى مردها إلى أهل العلم والبصيرة النافذة قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء: ٨٣]. لا إلى من قضى عمره فى الهندسة المعمارية أو الصناعية أو الهندسية، أو قضى عمره فى دراسات الجراحات الطبية أو غيرها من الفنون، ثم قرأ بعض الكتب فحفظها وفهمها على حسب فهمه المحدود وشن حرباً على العلماء والفقهاء والحركات الإسلامية صاحبة الفهم

الشامل، التى أشرف على تأسيسها وحركتها علماء ودعاة وفقهاء شهدت لهم الأمة بعلمهم وإخلاصهم وصدقهم، ولا الرجوع إلى من عاش فى متابعة الجرائد والإذاعات وتتبع سقطات الدعاة، وتتلمذ على كتب حرب العصابات مثل ماوتسى تنج فى الصين وجيفارا فى أمريكا اللاتينية، والبعد عن قيادتنا العظيمة أمثال نور الدين وصلاح الدين وقبل هؤلاء سيد المرسلين وأصحابه الميامين الطيبين وأراد أن يدفع بشباب الأمة نحو أهدافه التى رسمها.

قال الشيخ العلامة ابن سعدى رحمه الله فى تفسيره للآية المذكورة: «هذا تأديب من الله لعباده على فعلهم غير اللائق، وأنه ينبغى لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو الخوف الذى فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول ﷺ وإلى أولى الأمر منهم أهل الرأى والعلم والنصح والعقل والرزانة الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا ما فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مضرته أكبر من مصلحته لم يذيعوه ولهذا قال: ﴿**لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ أى: يستخبرون بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.

وفى هذا دليل لقاعدة مهمة وهى: إذا حصل بحث فى أمر من الأمور ينبغى أن يوكل إلى من هو أهل لذلك، ويُجْعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم فإنه أقرب للصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهى عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا فيحجم عنه»(١).

إن قضايا الجهود والسياسة الشرعية ما كان يفتى فيها إلا العلماء الراسخون فى المعرفة والعلم والفقه والذين أصبحت لهم دراية بمقاصد الشريعة، والموازنة بين المصالح والمفاسد، والأدلة التفصيلية ولا يمكن لشباب فى مقتبل العمر ضاعت

---

(١) تفسير السعدى (ج٢/ ٥٤، ٥٥).

أوقاتهم في القيل والقال، ولم يجلسوا في حلقات العلم ويأخذوه عن شيوخه أن يفتوا في أمور الجهاد التي تزهق فيها الأرواح، وتنفق فيها الأموال ويعتدى فيها على الأعراض.

بعد الدرس العميق لسيرة المصلح الجهادي صلاح الدين يتبين لنا أن الذين كانوا يفتون في زمانه هم العلماء الذين فهموا الشريعة ومقاصدها، واستوعبوا الموازنة بين المصالح والمفاسد، وواقعهم الذي عاشوا فيه، وتفننوا في معرفة المصالح والمفاسد.

وأنصح إخواني أبناء المسلمين أن لا ينغرُّوا بمن أوتي جدلاً باللسان ولم يُشهد له بأنه من أهل الفتوى، وأن لا يأخذ الإنسان دينه إلا ممن شهدت لهم الأمة بالعلم وعرفوا بالحرص عليه وتعلموا على أيدي العلماء، وصبروا على أخذ العلم، لأن الدين وفهمه عظمك ولحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ دينك فلا تأخذه من النكرات الذين أخذوا بعض ثقافاتهم من الصحف والأوراق واعتزوا بعقولهم وتفاخروا بنفوسهم.

إن العلم الشرعي علم يؤخذ بالتلقي فلا يجدي الأخذ من الكتب فقط، بل الاقتصار في التلقي على الأخذ من الكتب بلية من البلايا، وكذا اجتماع الشباب والطلبة على التدارس دون أخذ عن شيخ عالم عامل.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام»(١).

وكان بعض السلف يقولون: «من أعظم البلية تشيخ الصحيفة»(٢).

إن علماء الأمة على مر العصور والأزمان لا يرفعون فوق رؤوسهم الرايات ولا يدعون إلى شعارات، ولا يطالبون الناس بالانتماء إليهم، إنما يطالبون الناس بالانتماء إلى سنة سيد المرسلين ﷺ، وإياك أخي أن تكون مثل الخوارج الذين تركوا أهل العلم والفضل من الصحابة، وتابعوا الأعراب الذين لا يُجيدون إلا الخطابات الحماسية، وتأجيج العاطفة، فاحرص على الموثوق في دينه وعلمه:

---

(١) ابن جماعة تذكرة السامع ص (٨٧).

(٢) المصدر السابق ص (٨٧).

«فإن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»(١).

إن جيل صلاح الدين قادة وجنوداً جماعات وأفراداً، فهموا معنى قيمة العلم وممن يؤخذ، وأعطوا الفتوى لأصحابها، وتسلم العلماء الربانيون سياسة الأمة فقطعوا بها المراحل، وتدافع الجميع نحو مرضاة الله وزراء وقواد وسلاطين وعوام، فأصبح شغفهم بالعلم والعلماء واضحاً معلوماً، وحرصهم على الجهاد وتفجير طاقاته شيئاً ملموساً من سيرتهم، إن الجهاد حق الأمة وليس حق الأفراد، وتقرره الأمة بالالتفاف حول أهل الحل والعقد الذين تقدمهم الأمة، وليس مجموعة من الأفراد يطعنون في من يخالفهم.

ثانياً: من السمات الشخصية في صلاح الدين حرصه على العدل. وكان الأمراء والوزراء من قبل يتسلطون على الناس في أموالهم وأراضيهم، والملوك يسمحون لهم بذلك إرضاءً لهم وحتى تبقى طاعتهم.

ثالثاً: زهده في الدنيا ولذلك لم يخلف أموالاً ولا أملاكاً لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم، وحتى إلى أعدائه، وكان متقللاً في ملبسه ومأكله، ومركبه، وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف.

رابعاً: كان مهتماً بالعلوم في اللغة والأدب وأيام الناس، وكان يحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام.

خامساً: كان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في الجماعة يقال: إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيصلي به، وكان يتجشم القيام مع ضعفه.

سادساً: كان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع القرآن الكريم، والحديث الشريف.

سابعاً: كان ضحوك الوجه كثير البشر، لا يتضجر من خير يفعله، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات(٢).

فرحمة الله على أمثاله وأعلى ذكره في الصالحين.

---

(١) مقدمة صحيح مسلم (ج١/ ١٤). (٢) انظر: ابن كثير البداية والنهاية (ج١٢/ ٦، ٧).

د - من أروع المراثى فى صلاح الدين الأيوبى رحمه الله

قال العماد الأصبهانى رحمه الله: «دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه فى زيادة، وفى كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، ثم انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال ورثاه الشعراء»... إلى أن قال العماد الأصبهانى مرثيته المشهورة:

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذى ... لله خالصة صفت نياته
أين الذى مذ لم يذل مخشية ... مرجوة رهباته وهباتُهُ
أين الذى كانت له طاعتنا ... مبذولة ولربه طاعاته
أين الذى ما زال سلطاناً لنا ... يُرجى نداهُ وتتقى سطواته
أين الذى شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته
لا تحسبون مات شخصاً واحداً ... قد غم كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً ... أبداً لماذا أسلمته حُماتُه
قد أظلمت مذ غاب عنا دوره ... لما خلت من بدره داراته
دُفِنَ السماح فليس تنشر بعدما ... أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبى المظفر يوسف ... محفوفة بوروده حافاته
مَنْ لليتامى والأرامل راحمُ ... متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان فى عصر النبى لأنزلت ... فى ذكره من ذكره آياته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت ... من سلها وركوبها عزماته
يا وحشة الإسلام حين تمكنت ... من كل قلب مؤمن روعاته
يا داعياً للدين حين تمكنت ... منه الذئاب وأسلمته رُعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعياً ... ديناً تولى مذ رحلت ولاتُهُ
فارقت مُلكاً غير باق مُتعباً ... ووصلت مُلكاً باقياً راحاتُهُ(١)
من للثغور وقد عداها حفظه ... من للجهاد ولم تعد عاداته
ما كان أسرع عصره لما انقضى ... فكأنما سنواتُهُ ساعاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما ... رضوان رب العالمين بل صلواته(٢)

---

(١) النجوم الزاهرة (ج٦/ ٦٠، ٦١). (٢) صلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس، ص (١٠٢).

هـ - من أروع الرسائل فى أخبار وفاة صلاح الدين

قال صاحب النجوم الزاهرة: وفى ساعة موت السلطان صلاح الدين كتب القاضى الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الأحزاب: ٢١]، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[الحج: ١].

كتبتُ إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه وجبر مُصابه، وجعل فيه الخلف للملك المرحوم، وقد زلزل المسلمون زلزالاً عظيماً، وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد قبلت أباك ومخدمى وداعاً لا تلاقى بعده، وقد قبلت وجهه عنى وعنك، وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المغمدة، ما لا يدفع البلاء، ولا يرد القضاء، وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يُرضى الرب، وإنا عليك يا يوسف لمحزونون، وأما الوصايا فما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلنى المُصاب عنها، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما وعدتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام»(١).

فرحمة الله على صلاح الدين ومن قبله من السابقين ومن بعده من المسلمين الذين أخذوا بسنن التمكين.

قد يتساءل القارئ لماذا هذا الإطناب فى سيرة صلاح الدين ونور الدين؟ وجوابى على ذلك أن الدولة العُبيدية لها أسباب مباشرة فى السقوط وأسباب غير مباشرة، وإن فى رأيى أن من أهم الأسباب فى زوال الدولة العُبيدية: جهود القائدين العظيمين نور الدين محمود، وصلاح الدين؛ ولذلك أطنبت فى سيرتهم العطرة وإيضاح أهم أسباب النصر التى التزموا بها وأخذوا بها، وإظهار الجهود العلمية والتربوية والفقهية التى قام بها العلماء فى عصرهم وعصر من

(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ٥٢، ٥٣).

سبقهم، ليصل القارئ الكريم أن صلاح الدين ونور الدين لا يأتيان فجأة دون تمهيدات وإرهاصات وجهود تبذل من قبل أفراد الأمة وجماعاتها وعلمائها ودعاتها، وليعلم القارئ أن التغيير لا يحدث فى الأمة إلا إذا سبقه حرص جماعى على الأخذ به، وعلى أهمية معرفة أسباب النصر وعوامل الهزيمة وأهمية مزج الإخلاص فى النية بالصواب فى التفكير والعمل لا غنى لأحدهما عن الآخر.

وبهذا أكون قد انتهيت من كتابة الدولة العبيدية فى الشمال الإفريقى.

فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسى وتقصيرى.

أسأل الله أن يكون عملى خالصاً لوجهه الكريم، وأن تنتفع به أجيال المسلمين.

نتائج البحث

١ - عندما تكون الأمة قوية يعمدُ أعداؤها إلى لباس ثوب الدين ليسهل لهم تفتيتها ونخرها من الداخل وخصوصاً اليهود، ويتفنون فى رفع الشعارات المزيفة والكاذبة لخداع عوام المسلمين، وهذا ما فعله الزنديق اليهودى الحاقد عبد الله بن سبأ وهو أول من بذر بذرة الرافضة فى الأمة باسم التشيع ومناصرة أهل بيت النبوة.

٢ - إن أهل البيت رضوان الله عليهم وخصوصاً علماءهم ابتداءً من الإمام على رضي الله عنه يعتبرون من علماء أهل السنة والجماعة، وحاربوا بكل ما يملكون أهل البدع والابتداع فى الأمة.

٣ - إن زيد بن على خذله أهل الرفض لكونه امتنع عن سب الشيخين رضى الله عنهما وهذا يدل على حقد الروافض للصحابة الكرام.

٤ - إن التشيع كثرت فرقه وانتشرت فى بقاع الأرض وأصبحت له دول تحمى أتباعها ومن المعلوم أن الأفكار لا تموت فى الغالب وإنما يتغير أشكالها ولباسها وفق ما يحتاجه أهل كل مكان وزمان؛ ولذلك فإن بيان فرقهم التى لا زالت منتشرة وغيرت أسماءها جهاد يحبه الله ورسوله.

٥ - إن من أخطر فرق الشيعة فى الوقت الحاضر النصيرية التى تحالفت فى الماضى مع النصارى لاحتلال ديار الشام، وكانوا يحزنون إذا انتصر المسلمون ويفرحون إذا هزم المسلمون ولا زالت تحالفاتهم مع النصارى واليهود مستمرة ولهم دولة فى سوريا أذاقوا أهل السنة فيها الويلات من قتل وسجن وتعذيب وتشريد.

٦ - ومن أخطر الفرق المعاصرة: الاثنا عشرية التى أقامت دولة فى إيران، وتتدرج فى نشر أفكارها على مستوى العالم أجمع، ولا نستغرب إذا استمر أهل السنة فى نومهم العميق أن يضموا الإمارات العربية وقطر والبحرين وجزءاً من العراق والسعودية، ويرون هذا التوسع جهاداً وديناً وقربة لله.

٧ _ إن الإسماعيلية أتقنت تنظيمها ووفرت له كافة الأسباب – التى تنقل التنظيم إلى حكم دولة – من أسباب عسكرية، وأمور مادية، واختيار كفاءات عالية لها المقدرة على التخطيط والتنفيذ .

٨ _ إن القيادة الإسماعيلية اختارت مكاناً مليئاً بالظلم وفيه صراع عنيف بين القبائل والدولة العباسية ، وأرسلت دعاتها على مراحل حتى جاء دور الماكر الخادع أبى عبد الله الشيعى الذى تدل كتب التاريخ أنه رجل دولة له مقدرات عسكرية وفكرية وظفها فى تحقيق أهدافه ، وعندما استطاع أن يعرف مواطن القوة فى المجتمع المغربى ومواطن الضعف شرع فى الأخذ بأسباب القوة وإنهاك دولة الأغالبة وزيادة ضعفها مما ساعده على إسقاطها عام ٢٩٧ هـ .

٩ _ كان الناس فى زمن مجيء أبى عبد الله الشيعى مهيئين للتغيير ويبحثون عن بديل ويسعون لإزالة الظلم وتولدت نفرة عظيمة بين الأمراء والشعب فى الشمال الإفريقى .

١٠ _ إن عبيد الله المهدى عندما تقلد أمور الحكم عمل على تصفية أتباعه المخلصين الذين أسسوا دولته ، وهذا شيء ملاحظ فى تاريخ البشرية ، وهو ما يسمى بأن الثورة تأكل أبناءها ، وأقول : إن هذا الأمر يدخل فى سنة الله الجارية : من أعان ظالماً سلطه الله عليه ، وما انتقام الرئيس العراقى من وزيره وعامله وصهره عنا ببعيد ، بل جل الثورات تتعرض لهذه التصفيات .

١١ _ إن عبيد الله استفاد من معتقد المسلمين فى المهدى المنتظر وزين الأمر وزخرفه حتى أقنع كثيراً من الناس بأنه هو المقصود .

١٢ _ إن علماء أهل السنة دائماً وأبداً عندما تشتد الظلمة ويغيب الإسلام يقومون بدورهم الريادى فى إحياء الأمة ، ولو كلفهم ذلك نفوسهم وأموالهم وأهاليهم .

١٣ _ إن تربية الأمة على معتقد أهل السنة والجماعة هو السياج العقدى والفكرى والنفسى الذى يحميها من الدعوات الضالة المضلة .

١٤ – إن أهالى طرابلس قاوموا المد الرافضى والمعتقد الباطنى ، ودخلوا فى قتال عنيف مع بنى عبيد وفى نهاية المطاف إنقاد أهل طربلس بالقوة والسلاح لدولة العبيديين .

١٥ – لقد فعل العبيديون فى أهالى برقة ما تقشعر منه الأبدان وتشيب منه الرؤوس ، وثار أهل برقة العبيديون فى أهالى برقة ضدهم ، ولكنهم أخمدوا بالتنكيل ،والتعذيب والقتل وسبى النساء .

١٦ – استطاع أبو يزيد الخارجى أن يهز كيان الدولة العبيدية وكاد أن يقضى عليها إلا أنه لم يحقق ذلك ؛ لأن عقليته لم تكن عقلية رجل دولة ، ولم تكن له خطة واضحة الأهداف كما أنه غدر بحلفائه مم أفقد ثقة الناس فيه .

١٧ – إن علماء أهل السنة اجتهدوا فى مناصرتهم لأبى يزيد الخارجى إذ رأوا أنه أخف الضررين والدرس العميق الذى نخرج به هو شدة الحذر فى مثل هذه التحالفات وتقدير المصالح والمفاسد وخصوصاً عند أهل البدع الاعتقادية والأحزاب العلمانية ، فالمسلم كيس فطن ولا يلدغ من جحر مرتين .

١٨ – من أسباب نجاح ثورة أبى يزيد أن القائم بأمر الله الخليفة العبيدى سب الأنبياء وأظهر كفره ، فاستغل أبو يزيد ذلك وألب إباضية المغرب وجموع القبائل وفقهاء وزهاد القيروان عليه .

١٩ – أظهر الخليفة المنصور العبيدى الإسلام وقدم الفقهاء والعلماء ورفع الظلم عنهم حتى سكنت البلاد وقضى على الخارجين عليه .

٢٠ – إن أهالى الشمال الإفريقى طويلو النفس لا يرضون بغير منهج أهل السنة ولهم استعداد أن يقدموا الغالى والرخيص فى سبيل هذه العقيدة الصحيحة؛ لذلك اضطر خلفاء العبيديين أن يفكروا فى الانتقال إلى مصر والتخلص من الثورات والاضطرابات .

٢١ – أصبحت الدولة العبيدية راعية الفكر الباطنى فى العالم الإسلامى ، وتمده بالمال والسلاح وبكل ما يحتاجه ، لتقويته ضد أهل السنة فتم التعاون بين القرامطة والعبيديين إلا أنهم اختصموا واختلفوا على الدنيا .

٢٢ – اتخذت الدولة العبيدية أساليب متنوعة فى القضاء على عقيدة أهل السنة وكلها لم تحقق هدفها .

٢٣ – قاوم علماء السنة المد العبيدى الرافضى بكافة الأساليب المتاحة لهم من حجة وتعليم ودعوة وحمل سلاح ضد الطغاة الظالمين وتحملوا القتل والسجن والتعذيب .

٢٤ – استهدف علماء أهل السنة فى دعوتهم الأمراء الصنهاجيين ونجحوا فى إرشادهم وتعليمهم وأخص بالذكر الفقيه أبا الحسن الزجال .

٢٥ – كان الاهتمام بالمعز بن باديس مكسباً عظيماً لأهل السنة ، وكان المعز ابن باديس حكيماً فى تدرجه للانفصال عن الدولة العبيدية الباطنية ، إذ شجع العلماء والفقهاء من أهل السنة فى دعوتهم ، وضايق الروافض ، بل استدرجهم لمعارك طاحنة للقضاء عليهم بالسيف .

٢٦ – إن الدولة الصنهاجية البربرية الزيرية تحولت فى زمن المعز إلى دولة سنية وهذه بداية ضعف الدولة العبيدية ، بل من أسباب سقوطها .

٢٧ – إن إلغاء المذاهب السنية وإلزام الناس على الالتزام بمذهب واحد ضيق قاعدة الدفاع فى الشمال الإفريقى ، وكان الأولى للمعز أن يتبنى التيارات السنية كافة كما فعل نور الدين محمود مع كونه حنفى ، إلا أنه قدر وقدم بقية المذاهب السنية ، وكما فعل صلاح الدين فى كونه شافعيا .

٢٨ – لقد كانت سنة الله واضحة فى آجال الملوك والحكام ، وكذلك قوة الأفكار التى تحميها الدول ، وكم من تغيير حدث من أحفاد وأبناء من هم أعداء لمنهج أهل السنة .

٢٩ – مكرت الدولة العبيدية بالمعز بن باديس بإرسالها القبائل العربية للشمال الإفريقى ، وكان من أسباب انهزام المعز الصراع العنيف بين صنهاجة وكتامة وزناته ، وتركيب الجيش وارتكازه على العبيد الذين لم يتحصلوا على قسط وافر من التربية الإيمانية .

٣٠ – يعتبر عصر تميم بن المعز أفضل من والده ، إذ استطاع أن يضم المدن التى

انفصلت إلى دولته وأن يجند القبائل العربية فى جيشه وأن يهزم بنى عمه أصحاب الدولة الحمادية واستمر على نهج أبيه والدعوة إليه .

٣١ ـ يعتبر عصر يحيى بن تميم من أقوى العصور الزيرية خصوصاً فى مجال البحر ، وشن الحروب على النصارى ، وإرسال الحملات الجهادية فى حوض البحر المتوسط ، كما أن التجارة ازدهرت ازدهاراً عظيماً انعكس على الرعايا واستطاع أن يسوى العرب بسياسة حكيمة .

٣٢ ـ فى عصر الأمير على بن يحيى بدأت الأطماع النصرانية تظهر للعيان ، وتحركت أساطيل النصارى من صقلية للمناوشات فى البحر المتوسط .

٣٣ ـ سقطت المهدية عاصمة الزيريين فى عام ٥٤٣ هـ فى أيدى « رجال النصارى » حكام صقلية وكذلك طرابلس ومدن الساحل فى الشمال الإفريقى .

٣٤ ـ استطاع الموحدون أن يطهروا الشمال الإفريقى من النصارى وأن يحافظوا على وحدة البلاد السياسية من المغرب الأقصى إلى الحدود المصرية .

٣٥ ـ كان لسقوط الدولة الزيرية أسباب كثيرة من أهمها : الصراع الداخلى بين صنهاجة وزناتة وكتامة ، وتوسع الصراع بدخول العرب حلبة الصراع مما أضعف الدولة فى نواحيها العسكرية والتجارية والسياسية وغيرها ، وجعل العلماء والفقهاء يهاجرون إلى المشرق أو الأندلس أو المغرب الأقصى .

٣٦ ـ حكمت الدولة الزيرية ١٨٠ سنة هجرية ثم انتهت وأصبحت كالأمس الغابر ﴿ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾[يونس : ٤٩] وهذا يفيدنا عبرة واتعاظاً .

٣٧ ـ إن كان العبيديون نجحوا فى إضعاف المعز بن باديس ودولته فإن الله سلط عليهم إخوان المعز فى العقيدة نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبى للقضاء على ملك العبيديين .

٣٨ ـ تكاثفت جهود الأمة لمحاربة المد الباطنى الإسماعيلى ، وظهر ذلك جليًا فيما قام به السلطان محمود الغزنوى فى بلاد الهند ، والسلطان ألب أرسلان

السلجوقي في بلاد الشام ، من حرب العبيديين وكان الغزنويون والسلاجقة سنيون في معتقدهم .

٣٩ – برز في الدولة السجوقية الوزير نظام الملك « الحسن بن على » وكان ذا صلاح وتقوى وهمة في إحياء السنة وإماتة البدعة فوضع خطة طويلة المدى متعددة المراحل ترمى لإخراج أجيال متفقهة في الدين مستعدة للتضحية في سبيله ، فأسس المدارس في ديار المسلمين في نيسابور والعراق والشام ، وامتدت إلى مصر ، وشجع العلماء والفقهاء على التعليم والدعوة وتفقيه الناس ، ووفر للعملاء والطلاب كافة سبل الراحة ، وكان من أشهر العلماء في هذه المرحلة العصيبة أبو المعالى الجوينى ، والإمام الغزالى وقبلهم الماوردى، وأبو إسحاق الشيرازى فعملوا جادين في محاربة الرفض وإحياء السنن وهؤلاء زعماء المدرسة الشافعية السنية التى كان لها دور ملموس في فترة نهوض الأمة من كبوتها وتهيئتها لفتوحات نور الدين محمود ، وصلاح الدين .

٤٠ – ظهور علماء المدرسة الحنبلية السنية أمثال « أبو الوفاء بن عقيل وأبو الفرج ابن الجوزى » وتفرغهم لتعليم الناس وتربيتهم ، وكان لمدرسة أبى سعيد المخرمى الحنبلى دور ملموس في هذه الجهود ، وخصوصاً بعد أن تولى أمر هذه المدرسة الداعية الربانى والعالم الجليل عبد القادر الجيلانى الذى تربى على يديه كثير من علماء الشام في بغداد .

٤١ – بعد أن بذلت جهود تربوية عظيمة من أشهر روادها « الإمام الغزالى » وعبد القادر الجيلانى ، وبذلت جهود علمية لا يُستهان بها من أشهرها ما قامت به المدرسة الحنبلية الشافعية تولد جيل واضحة أهدافه ، عالية هممه ، وظهر في هذا الجيل الجديد قادة ربانيون من أمثال : عماد الدين زنكى الذى بدأ في انتزاع أراضى المسلمين من النصارى والحاقدين وحلفائهم الباطنية الملاعين .

٤٢ – كان عصر نور الدين زمن تغيير للأمة وكانت معالم وملامح التمكين ظاهرة من عدل شامل ، وحب للمصلحة العليا وتفان في أداء الواجب وتكامل بين أبناء الأمة ، وانصهروا جميعاً في تحقيق الأهداف العليا .

٤٣ _ رأت الدولة الزنكية أن لا قوة للأمة إلا باتحاد العراق مع الشام فبدأت الدولة الفتية فى توحيد أقطارها الإسلامية ، ورأت بمنظورها البعيد أن لا عزة للأمة ولا قضاء على النصارى إلا بالقضاء على دولة الرافضة العبيدية ، فأعدوا للأمر عدته ، واستطاع نور الدين أن يسقط الدولة العبيدية ، ويوحد جبهة القتال الشامية المصرية عام ٥٦٤ هـ ، وكان ذلك على يد أحد أعوانه المخلصين صلاح الدين الأيوبى .

ويظهر لقارئ التاريخ أن الأمة لا تستطيع أن ترد هجمات الناصرى إلا إذا اتحد الشام مع مصر ويكون ما خلفهما من ديار المسلمين ردءًا لهما .

وأما دور الأمة الهجومى لاستمرار عجلة الجهاد والتوغل فى أوربا لا يكون لها ذلك إلا إذا انضم الشمال الإفريقى مع بلاد الشام والديار المصرية .

٤٤ _ أجادت الدولة الزنكية فى إقامة شبكات أمنية على مستوى أملاكها تتبع كل التنظيمات البدعية التى تعمل على إسقاط الدولة السنية الزنكية الفتية، فكانت الدولة الزنكية تهتم بتتبع أقليات النصارى فى ديارهم ، وخنق أتباع العبيديين وجعلهم تحت أعين الدولة؛ ولذلك فإن الحركات الإسلامية السنية التى تسعى للوصول للحكم من أجل تحكيم شرع الله عليها أن تهتم بمكاتبها الأمنية وتطورها بما يليق مع مستوى المرحلة التى تمر بها حتى تستطيع أن تحجم دور الجيوب الداخلية فى الأمة « تنظيمات بدعية أو علمانية أو نصرانية أو يهودية » وإتقان هذا الجانب من أهم أسباب التكمين .

٤٥ _ إن الدولة النورية الزنكية ما كانت تسند أمورها القيادية إلا لجنودها وقادتها المخلصين لفكرتها ، ولذلك بعد ما مات نور الدين محمود التقط الراية صلاح الدين ، واستمر فى تحقيق الأهداف المرسومة .

إن من الأخطاء القاتلة التى تمر بها الأمة أحياناً : أن تتعلق بالأشخاص فإن ماتوا ضعفت وإن انحرفوا انحرفت؛ ولذلك يجب على الدعاة أن يجعلوا الأمة تتعلق بالمنهج حتى تستطيع أن تستمر فى أداء وظيفتها الرسالية .

٤٦ _ لابد للأمة التى تسعى لإزالة الدولة الكفرية والأحكام الجاهلية أن يمتزج

فيها الجانب العلمي التربوى مع الاستعداد العسكرى الجهادى ، وأن تكون القيادة العليا لأصحاب العلم الربانيين . ومن ظن أن الأمة بالقوة العسكرية وحدها ترجع مجدها فقد أخطأ السبيل ، وما أفغانستان عنا ببعيد ، ومن ظن أن الجانب العاطفى الجياش وحده يقوى الأمة فقد خالفه الصواب ، وما ديار الجزائر عنا ببعيد ، ومن ظن أن الجانب العلمى وحده أو السياسى وحده هو الحل العلمى فقد جانبه الصواب ، وإنما الحل فى الأخذ بالإسلام جملة ، فالإعداد لا بد أن يشمل كافة المجالات التى يتناولها الإسلام من دولة ووطن أو حكومة وأمة، أو خلق وقوة أو رحمة وعدالة أو ثقافة أو قانون ، أو علم وقضاء أو مادة وثروة أو كسب وغنى ، أو جهاد ودعوة ، أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء .

وهذا الذى اهتم به جيل التمكين فى زمن نور الدين محمود وصلاح الدين .

٤٧ - إن صلاح الدين الأيوبى تدرج فى القضاء على الدولة العبيدية ورضى بأن يتولى وزارة التفويض وبدأ فى تقليص الوجود العبيدى وإظهار التوجه السنى، ولم يستعجل النتائج ، ولا بد من مراعاة سنة التدرج فى تغيير الشعوب وإزالة الدول ، كما أنه لا بد من الاهتمام بالتخصيص فى أمور الدولة ومن التفنن فى توزيع الأدوار حتى يتكامل العاملون لتحقيق أهدافهم .

٤٨ - إن صلاح الدين أمضى سلاح العفو عند المقدرة مع خصومه ، فكان له أثر بالغ فى كسب النفوس ومداواة الأمراض ، وتوحيد الصفوف والقضاء على الفتن الداخلية ، فالعفو عند المقدرة عندما يكون فى محله يقوى الدول ويجذب االقلوب ويقضى على الخصوم .

٤٩ - عندما تمكن صلاح الدين من توحيد الجبهة الداخلية تحرك بجيوشه الجرارة لتطهير الشام من الصليبيين ، وكان تحركه الميمون وفق خطة عسكرية محكمة ، بدأ فى انتزاع الحصون والمدن القريبة من مصر ، واستدرج النصارى إلى مواقع اختارتها أركان حرب صلاح الدين ألا هو « حطين » ووجه ضربته المباركة فى حطين التى كانت مفتاح القدس .

٥٠ – إن أخلاق القادة الرفيعة تظهر فى الفتوحات العظيمة ، ولقد ضرب صلاح الدين أروع الأمثلة فى الأخلاق والعفة والكرم والصفح فى فتحه للقدس ، حتى إن ملوك النصارى ومؤرخوهم تأثروا بهذه الأفعال الجميلة والأيادى الجزيلة والفضل ما شهدت به الأعداء .

٥١ – إن القيادة الفكرية والعلمية لم تكن فى يد صلاح الدين ، وإنما كانت مرتكزة عند العلماء والفقهاء ، وبرز من أعوان صلاح الدين القاضى الفاضل الذى أخذ بيد صلاح الدين نحو تطبيق شرع الله ، فعندما تكون القيادة الفعلية فى الأمة للعلماء الربانيين والقادة العسكريين الذين ينقادون لأحكام الله يكون النصر حليفهم ويمكن الله لهم ما داموا على نهجه سائرين .

٥٢ – إن الأمة تتفاعل مع قيادتها العملية التى تنزل الأفكار فى دنيا الناس وتعيش بها وتلتف الأمة حولهم وتقدم لقادتها كل ما تملك ، أما إذا كان القادة أصحاب كلام لا فعال ، وعقيدتهم ميتة لا تحيى قلباً ، ولا تدفع شخصاً ، وجلسوا للتنظير والقيل والقال ، فإن الأمة تتمزق وتنشطر وتتفرق ويعم الشتات ، وهذا ملاحظ من سيرة نور الدين محمود الذى أقام الإسلام على نفسه، ونزل بنفسه فى ساحات الوغى ، وكذلك فى سيرة صلاح الدين وتلاميذه.

٥٣ – مهما استطال الظلم وامتد وتوسع فلا بد من نهاية له سواء تمثل فى فرد أو فى دولة ، وهذه النهاية خاضعة لتقدير الله وفق سنته وقانونه فى استدراج الظالمين والانتقام منهم وجعلهم عبرة لغيرهم فأين حكام العبيدين وأين ملكهم ودلتهم .

٥٤ – إن الجهاد عندما تقوم به الأمة كلها بقيادة أهل الحل والعقد يعطى أكله بعد حين وعندما يتصدى لقيادة الجهاد جهال وأنصاف علماء وشباب متحمسون تكون النتائج وخيمة .

٥٥ – إنى أعتبر ما قام به صلاح الدين ونور الدين من أعمال مجيدة ثمرة لجهود علماء وفقهاء ومربين بذلوا جهوداً عظيمة وأخرجت هذا الجيل الذى قضى

على دولة العبيديين وكسر شوكة النصارى فى حطين ، وطهر المسجد الأقصى من أسر الحاقدين .

٥٦ – إن الاهتمام بصفات القادة الربانيين والعلماء العاملين يفيد الأمة فى تربيتها الطويلة وإعدادها الجاد لعودة صولتها وجولتها فى دنيا الوجود على منهج قويم وتوجيه سليم .

٥٧ – إن هذا المجهود المتواضع للنقد والتوجيه وما هى إلا محاولة متواضعة وبينى وبين الناقد قول الشاعر :

إن تجد عيباً فسدَّ الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



الفهرس

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الدولة الصنهاجية ٩٥

الفصل الرابع

سقوط الدولة العبيدية ١٢٥